لماذا نحتاج إلى الأسرار

إن حياة الإنسان الحقيقية والجديرة بالاهتمام هي تلك التي تجري في طي من الكتمان، كما تحت جنح الظلام.

أنطون تشيخوف

طبعاً لا توجد أرقام عن عدد الناس الذين يحفظون السر. فالسر هو بكل بساطة سر. لكن هناك مؤشرات. وتعتقد الباحثة في شؤون الأسرار أنيتا- ي - كيلي بأن كل إنسان يخفي في مرحلة ما من مراحل حياته شيئاً عن الآخرين. لكن ليس بوسعها تقديم أدلة واضحة على هذا الاعتقاد. لكن الخبرة الآتية يبدو لها أحياناً وكأنها قابلة للتعميم. فمن أجل إحدى دراساتها الأولى عن هذا الموضوع أرادت أن تفرز عدداً من الطلاب الذين كانت لديهم أسرار. لكنها سرعان ما أدركت بأن هذه المحاولة لن تصل إلى النتيجة المرجوة لأن كان لدى كل طالب شيء لا يبوح به للآخرين. ثم بيّنت دراسة أخرى مدى انتشار الأسرار: 99% من عيّنة الاختبار قالوا إنهم يكتمون شيئاً ما عن الناس الآخرين. وفي دراسة أخرى كان مطلوب من المشاركين في العيّنة أن يسجلوا كم مرة كذبوا في اليوم من أجل إخفاء شيء عن الآخرين. كانت النتيجة: من مرة إلى مرتين يومياً. إذاً يحق لنا

obeikan.com

القول إن لكل منا أسراره، كبيرة كانت أم صغيرة، مؤذية أو بريئة، مكتومة على مدى قصير أو إلى الأبد.

ونتيجة الانتشار الواسع لهذا الشيء المكتوم يلح طبعاً السؤال: لماذا الأمر هكذا؟ هل نحن جبناء لقول الحقيقة أم أن ذلك أكثر راحة؟ هل يتعلق الأمر بعادة سيئة أم بمجرد إهمال بسيط؟ من الممكن أن هذه الدوافع هي التي تخلق هذا السر أو ذاك. لكن خلف ذلك يقبع الكثير، بل الأكثر من الكثير. فنحن بحاجة إلى درجة معينة من كتمان السر. ومن دون ذلك لن تكون لنا حياة نتحكم بها ذاتياً. ومن دون الأسرار سنقع تحت رحمة أناس آخرين وتحت رحمة العشرة والمجتمع، ومن دون الأسرار لما كانت هناك شخصية مستقلة بذاتها. ولولا الأسرار لما كانت هناك حياة خاصة ومستقلة.

ومن لا يعتقد ذلك عليه أن يطرح على نفسه السؤال البسيط: كيف سيكون شكل الحياة من دون أسرار؟ كيف سنعيش في مجتمع لا نستطيع أن نحتفظ فيه بشيء لأنفسنا، مجتمع يرصد كل حركاتنا بل حتى أفكارنا؟

لقد سبق للكاتب جورج أوريل George Orwell أن وصف مثل هذا المجتمع في روايته التي تحمل عنوان «1984» وأظهر عبر الشخصية الرئيسة في الرواية «وينستون سميث» كيف يفقد الإنسان هويته مع الزمن عندما لا تتاح له صياغة أفكاره الخاصة:

مثال: يعمل وينستون سميث (39 عاماً) في «وزارة الحقيقة» وعندما يسير في شوارع مدينته أو ينظر عبر نافذة بيته يرى لوحات إعلانات كبيرة

معلقة في كل مكان تحمل صورة وجه مكبرة عدة مرات وتحتها سطر يقول: «الأخ الكبير يشاهدك» وحيث يحل وينستون سميث يرى الأخ الكبير في إثره. ويحرص بوليس الفكر على أن لا يضمر أي أفكار خاطئة.

في كل منزل، وفي منزله أيضاً هناك شاشة تلفازية لا تسجل فقط فقد كل نأمة (خربشة) بل تراقب أيضاً كل حركة في البيت. ولا يعرف وينستون فيما إذا كان انتباه المراقبين خلف الشاشة موجهاً إليه أم لا.

تقحم نفسها شرطة الأفكار في مساكن المواطنين بنظام لا يعرفه أحد، ولا يستبعد أن يكون إرساله لا ينقطع. على أي حال يجب على كل مواطن أن يحسب في كل لحظة بأنه يخضع للمراقبة.

لكن وينستون سميث كان محظوظاً، فقد كانت شاشته في غرفة جلوسه مركّبة بحيث بقيت له زاوية صغيرة من أجل الأمور الخاصة. أما كيف ندت هذه الهفوة عن شرطة الفكر، فلا علم له بها، لكهنه يستغل هذه الحرية الصغيرة ليخرج أحياناً على الأقل خارج نطاق المراقبة الدائمة.

ذات يوم يرى سميث مصادفة في متجر - ممنوع دخوله أصلاً - كتاباً تخلو صفحاته من الكتابة، فيدرك فوراً أن عليه أن يقتني هذا الكتاب. يتسلل إلى المتجر ويشتريه خلافاً لأي منطق. ماذا يمكن أن يفعل به؟ إنه يريد أن يملأ الصفحات بأفكاره الخاصة التي لا يستطيع أصلاً أن يفكر بها. وسوف يبوح بها إلى صفحات الكتاب. وبذلك يقدم على مغامرة كبيرة؛ لأن تدوين الأفكار ممنوع أيضاً. وإذا ما اكتشفت شرطة الفكر ذلك فعليه أن يحسب حساب 25 سنة في السجن أو حتى الحكم عليه بالإعدام.

ومن يدري إن كان سيجرؤ على ذلك لو لم تكن تلك الزاوية، التي لا تخضع للمراقبة، موجودة في بيته. إنها تمنحه الجرأة. ويبدأ وينستون سميث بالكتابة دون أن تدري بأمره شرطة الفكر. لم يدر في خلده أول الأمر إلا كلمات لا رابط بينها. لكنه سرعان ما يطلق العنان لأفكاره. لم يعد يعي البتة ما الذي يكتبه، فقد تدفقت منه الكلمات بوجه عفوي. لكن لا بد له في وقت ما من استراحة عندما يصل إلى حد الإنهاك ليقرأ ما كتبه بصورة آلية ودون إرادته. فقرأ ما وجده مكتوباً بأحرف كبيرة:

يسقط الأخ الكبير

يسقط الأخ الكبير

يسقط الأخ الكبير

فيجفل ونستون سميث بصورة مرعبة. وفي أول انفعال له أراد أن ينتزع الصفحات ويمزقها. لكنه أدرك بعدها أنه لا يستطيع أن يجعل ما فكر به وكأنه لم يحدث، فسواء كتب «يسقط الأخ الكبير» أم لم يكتب، لن يتغير في الأمر شيء. وكذلك أيضاً سواء استمر في الكتابة أم لم يستمر فالأمر سيان. فشرطة الفكر سوف تلقي القبض عليه في كل الأحوال.

لقد ارتكب أكبر الجرائم التي أبقى عليها الآخرون مسجونة في دواخلهم. وأطلقوا عليها جريمة الفكر. وجرائم الفكر لا يمكن كتمانها إلى الأبد. يمكن للمرء لمدة، أو حتى لبضع سنوات، أن يصبر عليها بنجاح، لكن عاجلاً أو آجلاً سوف تلقي القبض على صاحبها. فمن يرتكب جريمة فكر يعد بحكم الميت.

أخيراً لم يعد وينستون سميث يحتمل ضغوط شرطة الفكر. وبعد مضايقات شديدة وصلت حتى التعذيب يتخلى عن سلوكه وتفكيره المستقل. ولم يعد يحارب الأخ الكبير بل على العكس. وتنتهي رواية «1984» بعبارات «لكن الأمور حسنة الآن. كان كل شيء على ما يرام، لقد انتهى الكفاح. انتصر على نفسه وبات الآن يحب الأخ الكبير».

تقدم لنا رواية جورج أورويل بأسلوب مُقحم معرفة أن الرعب المحض هو أن تعيش في عالم يخلو من الأفكار ومن الأسرار. ليس هناك «أنا» مستقلة، وليس هناك من فرد، أو انحراف (مخالفة) بل مجرد حياة ذات لون واحد لا يسمح فيها إلا ما تراه السلطة مناسباً. فعندما تزعم السلطة بأن 2+2=5 فإنه من العبث، لا بل أحياناً في منتهى الخطر على الحياة، أن تقول ما يخالف ذلك.

ونحن أيضاً سنصبح في مجتمعنا أكثر «شفافية». فعن طريق بطاقة الائتمان وهواتفنا المحمولة والمعلومات المتعلقة بوضعنا الصحي وسلوكنا أثناء السفر يمكن تتبع الكثير من معاملاتنا وتحركاتنا. تسجل مكتبات الإنترنت كل طلباتنا، تحفظ ما نفضله، وتضع لنا عروضاً مفصلة على قياسنا.

في كل الساحات العامة وعلى أرصفة محطات القطارات وفي المطارات هناك آلات تصوير تلاحق الطرق التي نسير عليها. وإذا ما لحق بنا سوء الطالع تعرضنا لمراقبة هواتفنا من قبل مكافحة الإرهاب. هناك الكثير مما لا يريح. لكن بالرغم من كل شيء فإننا نعيش حياة ديمقراطية. تسودها حرية التعبير وما تزال فيها كرامة الناس مصانة.

obeikan.com

وهذا يعني أيضاً بأننا يمكن أن نقرر بأنفسنا ما هي الآراء التي نفصح عنها ومدى ما نريد أن نُطلع عليه الآخرين. فعندما يتعلق الأمر بأفكارنا ومشاعرنا يمكننا أن نقرر بكل حرية واستقلالية، فيما إذا كنا سنلعب بأوراق مكشوفة وإلى أي مدى. نحن الذين نحدد ما الذي يجب أن يظهر للآخرين أو لا يجب ألا يظهر. فمن دون إرادة منا لن يعرف أحد شيئاً عن مشاعرنا الحقيقية وعن همومنا ومتاعبنا ومخاوفنا ولحظات سعادتنا. نحن نقرر مدى معرفة الناس بنا والجوانب التي يمكنهم الاطلاع عليها من حياتنا وتلك التي يفضل ألا يطلعوا عليها. يمكننا أن نصمت لأننا لا نريد أن نجرح إنساناً آخر، أو لأننا نخاف من ردات فعله. يمكننا أن نحتفظ لأنفسنا بوجهات نظرنا فيما إذا كانت سوف تعرضنا للخطر في أماكن عملنا، أو إن كانت ستسبب الحرج لأناس آخرين. يجب ألا نجعل من نياتنا عاراً علينه يسمعه القاصي والداني، إن كنا لا نرغب بذلك. يمكننا أن نغلق أفواهنا لكي لا نفقد السيطرة والقوة، وأن نكتم خططنا طالما لم نتأكد منها بعد.

لكن لا نستطيع كل ذلك عندما نجعل ما بداخلنا عرضة لأنظار الآخرين دون حماية، وعندما يمكن للآخرين قراءة أفكارنا وكأنها كتاب مفتوح، وعندما لا تكون هناك حدود بين «الأنا» و«الأنت». والأسرار تخدم بأساليب متنوعة الحفاظ على الاستقلال الذاتي. إنها درع وقاية نقي أنفسنا به في عالم يتزايد فيه كشف خصوصياتنا، وضد التقارب الزائد عن حدِّه، وضد الفضول المتزايد، ويساعدنا في الوقت نفسه على الحيلولة دون اختلاط الأمور علينا. ولولا الأسرار لما كنا الأشخاص التي نحن هي

في الواقع. وبدون الأسرار لما استطعنا تحقيق بعض الأهداف . ولما كنا الناس الذين نحن بالفعل.

ما هو السر؟

عندما نقول «سر» ماذا نقصد بذلك أصلاً؟ متى يكون لديّ سر؟ ومتى لا يكون؟هل كل ما لا أفصح عنه يعد سراً؟ وهل يمكن عدّ كل كذبة وكل خداع سراً؟ هل يعدّ سراً أن أقول مثلاً إن وزني 52 كيلو غراماً، بينما هو في الواقع 58 كيلو غراما؟هل يتعلق الأمر بسر عندما أقول لصديقة كم هي جميلة تسريحة شعرها، وفي داخلي أقول: «إنها تبدو بهذه القصة أكبر سناً»؟ هل من السر عندما لا أدع أحداً يطّلع على تخيلاتي الجنسية؟ أو هل تعدّ علاقة ما، كإقامة علاقة خارج نطاق الزوجية، أمراً خطيراً أو جنحة مسلكية تتعلق بالعمل، حقاً سراً؟

ظهرت صفة «سري» منذ القرن الخامس عشر. أطلق الناس آنذاك بهذه الكلمة على كل شيء أليف يعود إلى كلمة بيت[1] «وغير متاح للآخرين».

في اللغتين الإنكليزية والفرنسية يعبر عن السر بكلمة secret وهي مشتقة من اللاتينية secretum أو من الفعل secernere الذي يعني إلى حد ما فصل –فرق– أو قطع. إذاً فالسر هو الشيء الذي يخص البيت أو المنزل أو الأمر الخاص الذي يفصل بين ما يخفي أو ما يخصنا، ما يخص بيتنا، وبين الآخرين الذين هم من خارج هذا النطاق. والسر يفصل إنساناً أو مجموعة عن إنسان آخر، ويصون الحياة الحميمة والخاصة. ومَنْ يحفظ السر لا يتيح للآخرين –قصداً– النظر خلف الكواليس وذلك

من أجل صون جوّه الخاص. وعندما يريد المرء أن يجيب عن سؤال يُطرح بالفعل، أو يمكن أن يطرح، بعبارة «لا علاقة لك بذلك» أو «أنت لست معنياً بهذا الأمر» يتعلق الأمر في غالب الأحيان بأمر يريد المرء أن يحتفظ به لنفسه، أي بسر.

صفة أخرى من صفات الأسرار هي أن يشارك فيها شخص آخر على الأقل. من غير المسموح به لأي شخص أن يعرف السر؛ لأنه لا ينتسب «للبيت» -ويمكن أن نكون نحن هذا الشخص- وسوف نعالج هذا التناقض في الفقرة السابعة من فصل «لماذا نحتاج إلى الأسرار» في هذا الكتاب. فالسر يضع حداً واضحاً بين «الأنا» و«الأنت» أو «النحن» والآخرين.

يرى المحلل النفسي فولفغانغ شميتباور بأن الحد ضروري ويجب احترامه في كل الأحوال «يفصل هذا الحد بين من يعرف السر ومن لا يعرفه. فمن يتخطى هذا الخط يُعد جاسوساً، ومن يفشي هذا السر هو خائن». بالإضافة إلى صون ما هو خصوصي هناك سمة أخرى مهمة من سمات الأسرار. إننا نتكلم على شيء أمام الآخرين عندما نريد ألا نطلعهم على الحقيقة، أو نخفي الحقيقة لأننا نريد وقاية أنفسنا. فمن الممكن أن يكون لرد فعل الآخرين على صراحتنا أثر سلبي يجلب لنا المتاعب. وهكذا يخدم السر -حسب الحالة- وقاية الآخرين و/أو وقاية أنفسنا.

نمتنع عن إتاحة الفرصة للآخرين للإطلاع على شيء لأننا نخشى ألا يحسنوا التصرف المطلوب، أو لأننا نحن الذين نريد تحديد الأسلوب الذي يجب أن يخرج فيه هذا الشيء إلى العلن، أو إذا ما كان سيخرج

obeikan.com

أصلاً. فعندما نحفظ سراً فإننا بذلك نستخدم حقنا في تقرير المصير. فالسر إذاً هو الشيء:

- الذي لا نريد أن نفشيه لوقاية الآخرين وأنفسنا أيضاً.
- الذي يتعلق بنا فقط أو بمجموعة مختارة من الأشخاص والذي يرسم حدوداً بين الخاص والعام.
- والسر هو عادة قضية علاقة إنسانية: لدينا سر تجاه شخص ما. الأسرار كنز كثير منا من لا يعرف قيمته. وإذا ما نظرنا إلى هذا الكنز بدقة لتبين لنا: ماذا تساوي أهمية الأسرار؟ لماذا لا يمكننا ولا نرغب أيضاً أن نتخلى عنها، بالرغم من كل الوصايا لقول الحقيقة والصراحة والأمانة؟ إنها بالدرجة الأولى ثمانية أسباب تجعل من الأسرار أموراً بنّاءة ومساعدة في الحياة:

ثمانية أسباب وجيهة للاحتفاظ بالسر:

1- الأسرار تنمّي الاستقلالية.

2- الأسرار توفر الحماية.

3- تساعد الأسرار على بلوغ الأهداف وتحقيقها.

4- الأسرار تحافظ على الخصوصية.

5- الأسرار تخدم الحب.

6- تقينا الأسرار من الإدراك المؤلم للذات.

7- توفر لنا الأسرار حياة ثانية إلى جانب الحياة العادية.

8- الأسرار تزيد المرأة قوة.

obeikan.com

1- الأسرار تدعم الاستقلالية:

لنبدأ بالأطفال؛ لأن الأسرار لا تقتصر على البالغين فقط. بل العكس. فحتى في السنوات الأولى من عمرهم يكتشف الأطفال أيضاً إمكانية الحفاظ على سريّة شيء ما. فلديهم أسرارهم التي يخفونها عن الأطفال الآخرين وقبل كل شيء عن البالغين. يكتشفون حياتهم الجنسية ويقعون في حب ابن أو ابنة الجيران وينفقون مصروفهم اليومي على أشياء لا يمكن للأهل أن يسمحوا بها. يسرقون أشياء من البقاليات للبرهان على جرأتهم، لديهم مخبأ لا يجوز لأحد أن يعرفه. يبحثون قبل عيد الميلاد عن هداياهم ويشاهدون برامج تلفازية ممنوعة عليهم عندما يغيب الأهل عن المنزل. يقرؤون سراً على ضوء مصباح الجيب تحت أغطية السرير ويلقون بسندوتشاتهم بعيداً. يكتبون أفكارهم في دفتر مذكرات محفوظ جيداً لديهم.

للأطفال أسرارهم. وليس ذلك فقط، بل يكذبون بكل بساطة بالرغم من كل التنبيهات من أجل الحفاظ على أسرارهم أو أسرار الآخرين.

طبعاً يفضل الأهل عدم سماع ذلك؛ لأن التربية عادة موجهة نحو عكس ذلك. يجب على الأطفال أن يتعلموا قيمة الحقيقة والصراحة. ويضع الأهل في أذهان أطفالهم منذ الصغر بأن حبل الكذب قصير. وأن من يكذب مرة لا يجوز تصديقه. وعندما يكذب الطفل يعتقد الأهل بأنهم قد أخطؤوا في شيء. ولكن ذلك ليس بالضرورة.

طبعاً يتعلق الأمر بنوعية وحجم الكذبة وعلى مدى تكرار التلفيق.

ولكن مبدئياً يجب على الأهل ألا يغضبوا، بل أن يفرحوا عندما لا يلتزم طفلهم دائماً بجانب الحقيقة؛ لأن الحفاظ الباكر على السريّة هو إشارة جيدة: لأنها تحدد معالم بداية الاستقلالية. وحالما أصبح الطفل قادراً على الاحتفاظ بشيء لنفسه، يكتشف استقلاليته وتفرد شخصيته. الأمر الذي يعد شرطاً مهماً من شروط التطور النفسي السليم.

لا أسرار عند الأطفال الصغار؛ لأنهم غير قادرين على إخفاء رغباتهم، ويعتقدون بأن تفكيرهم وسلوكهم متلازمان مع تفكير وسلوك البالغين. ويعتقدون بأن الآخرين، وبخاصة الوالدين، يعرفون عنهم كل شيء. فالأطفال الصغار لم يصبحوا بعد قادرين على إدراك أنفسهم مستقلين عن الآخرين. لكن مع سن الخامسة يتغير إدراكهم هذا للعالم، عندما يكتشفون أن بإمكانهم أن يبقوا على شيء سراً دون أن يكتشف البالغون ذلك. إذاً يدركون ذواتهم المستقلة التي لها حدود تفصلها عن الآخرين. يدركون بأن أفكارهم تخصهم، وأن الناس الآخرين يعيشون مستقلين عنهم. وبكل ارتياح يؤكدون «أنا لست تحت رحمة إنسان آخر ولديّ القدرة على إبعاد الآخرين عن حياتي الداخلية الخاصة».

ويلاحظ الطفل أنه يستطيع عبر الصمت أن يسيطر على أشياء وحالات، وأنه ليس مكشوفاً كلياً على الآخرين، وأنه ليس تحت رحمة البالغين في السراء والضراء، ويكتشف ببالغ السرور بأن إرادته لا يجب أن تكون بالضرورة مقترنة بإرادة الأهل؛ لأن خبرته في التكتم على شيء تجعله مستقلاً وواثقاً بنفسه.

obeikan.com

هناك العديد من الدراسات النفسية تؤكد بأن الموقف من الحقيقة مرتبط بالسن. منها مثلاً دراسة للباحثين ريناته فالتين Renate Valtin وآلان واتسون Alan Watson واليزابيث فليتنر Elisabeth Flitner. فقد طرحوا أسئلة على 200 طفل ألماني وأسترالي في سن 5 – 12 سنة حول موضوع السر. وفي المقابلات الإفرادية واجهوا الأطفال بقصص مصورة تدور موضوعاتها عن حالات من الحياة اليومية. في إحدى هذه القصص مثلاً يقص طفل لصديقه أو صديقته شيئاً ويأخذ منه وعداً ألا يبوح لأحد بذلك البتّة. في هذه اللحظة تأتي والدة الطفل الذي اطلع على القصة وتريد أن تعرف عما كان يتحدث عنه الطفلان. كيف يتصرف الطفل الذي تعهّد بكتمان السر؟

أكثرية الأطفال ما بين سن 5-6 سنوات تريد أن تخبر الأم بالحقيقة. أما الأطفال في سن الثامنة فقد مال نصفهم إلى قول الحقيقة. أما أكثر أطفال المرحلة العمرية ما بين 10-12 سنة فقد أكدوا أنهم سيصمتون حتماً. وهنا نلحظ بوضوح وجود حدود عمرية. فالأطفال الصغار يسلكون بالطبع حسب التوصية بوجوب قول الحقيقة للأم. وبالنسبة للأطفال الأكبر منهم فلديهم معيار آخر له دوره فاعل وهو «يجب أن تكون أهلاً للثقة التي أولاك إياها صديقك فهناك واجب الحفاظ على السر». أما بالنسبة لأطفال الفئة الثالثة، الأكبر عمراً، فإن السر هو شيء يمهّد للصداقة ويقويها. الأطفال الأصغر عمراً يفهمون السر على نحو مختلف مثل: تناول حلويات بالسر، أو لعبة لا يعرف عنها أحد شيئاً، أو مكان يحبه المرء ويجب ألا يعرف عنه أحد شيئاً. أو لعبة لا يفهمها أحد، أو أي طقس معين يقوم به المرء بمفرده. مثل هذه الأسرار تخصهم وحدهم

ولا يريدون أن يدعوا أحداً آخر يطلع عليها. والأمر هنا يتعلق بأسرار ليست محرّمة بالفعل. فالأطفال لا يخرقون بها أوامر أو نواهي الأهل، بل يتمتعون بها لمجرد أنها تخصهم وحدهم فقط.

ومع سن السادسة تقريباً يبدأ الأطفال، ليس فقط بكتمان أسرارهم الصغيرة الجميلة، بل أصبحوا منذ الآن قادرين على تحديد نوعية المشاعر التي يمكن إطلاع الناس الآخرين عليها، وتلك التي يفضّلون الاحتفاظ بها لأنفسهم. وهم يفعلون ذلك انطلاقاً من دوافع مختلفة:

للأطفال أسرارهم من أجل حماية شعورهم بالقيمة الذاتية:

يخفي الأطفال مشاعرهم الحقيقية لكي لا يُظهروا للآخرين بأن كرامتهم قد أهينت. ولا يبوحون لأحد؛ لأنهم يستاءون إذا لم يُدعوا لحفلة عيد ميلاد إحدى تلميذات صفهم، ولا يُظهرون ألمهم عندما يتألمون. أخيراً لا يريدون أن يظهروا أمام الآخرين متوجعين أو باكين.

تتذكر مارليس حادثة وقعت لها في طفولتها تؤكد أن بإمكان الأطفال الصغار أن يُخفوا مشاعرهم، عندما يريدون حفظ شعورهم بالقيمة الذاتية.

مثال: أعتقد أنني كنت في سن الخامسة. كانت والدتي امرأة سريعة الغضب. وغالباً ما تُفلت يدها. وهكذا كان ذلك اليوم الذي أتذكره. شتمتني بعنف وتلقيت صفعة منها، لسبب لم أعد أذكره. لكن أعلم أن صفعاتها كانت ظلماً. وبعد قليل، لكن في اليوم نفسه، بدأت والدتي بكي الثياب، وأجبرتني على أن أبقى معها أسلّيها. سمحت لي أن أطوي قطع غسيل صغيرة مثل المناديل القماشية التي يستعملها والدي. وهنا حدث

obeikan.com

الآتي: اقتربت من المكواة لتسبب لي حرقاً أليماً في ساعدي. ولم تبدُ عني أي حركة. فقد كنت ما زلت مستاءة ومجروحة الفؤاد، ولم أكن أريد أن أوفر لوالدتي مناسبة تتودد بها إليّ عبر المواساة أو العناية. تحملت الألم بصمت. وعندما رأت أثر الحرق فيما بعد، كان رد فعلها كمن أدرك خطيئة ويعتذر. وقبل ذلك لم تلحظ شيئاً! كانت لحظة انتصار بالنسبة لي لأني لم أدع لها مجالاً للاطلاع على مشاعري.

للأطفال أسرارهم للحفاظ على مشاعر الآخرين:

يتعلم الأطفال أيضاً الملاحظة. وبذلك يتعلمون أيضاً من البالغين بأن الكذب مسموح عندما لا يريد المرء أن يجرح الآخرين بالحقيقة لأن طلباً مثل «قل للجدة بأنك تُعجب بالكنزة التي نسجتها لك» يعلمهم بأن مثل هذه المجاملات مسموحة حتى ولو كانت تجافي الحقيقة. أيضاً عندما يرون أفعالاً مختلفة تعقب بعض الملاحظات مثل: «من غير المناسب لي على الإطلاق أن تأتي العمة أو الخالة (فلانة) لزيارتنا» لكن عندما تدق الخالة جرس الباب تهرع إليها الأم معانقة بشوق. سرعان ما يدركون أن هناك أسباباً وجيهة تبرر هذا الرياء. فالطفل الذي يسجل هذا التناقض بين المظهر والسلوك يدرك أن «هناك حالات من الأفضل ألا أكون فيها صادقاً».

للأطفال أسرارهم لكي لا يضطروا للشعور بالخجل:

بعض الأطفال يحتفظون بسر -لأنهم يشعرون بالخجل- لا يبوحون به لأحد، مثلاً عندما تتناول الأم الكحول، أو عندما يضرب الأب الأم، أو عندما لا تعرف الأسرة كيف تحل مشكلاتها. كان فقر الأسرة سراً

حافظت عليه «أولا» Ulla في طفولتها لمدة طويلة، والذي اتخذ أبعاداً طريفة إلى حد ما.

مثال: كنت طفلة بائسة من حيث الوضع المادي. كان والدي عاملاً بسيطاً وكانت والدتي ربة منزل. ولم يكن لدينا من المال ما يكفي إلا لأمسّ الحاجات. ولم تكن ملابسي من ضمن هذه الضروريات. مر عليّ وقت ولم يكن عندي سوى تنورة واحدة. ما زلت أذكر كيف كان شكلها. كانت مصنوعة من قماش الجوخ الأخضر «الجيد» كما كانت تؤكد والدتي دون كلل. كانت لها في الجهة الأمامية طيتان بارزتان مخططتان. أصلاً كانت تنورة جميلة، وكانت أيضاً بالتأكيد مرتفعة الثمن نسبياً. لكنها كانت لمدة -تزيد عن عامين على الأقل- التنورة الوحيدة لديّ. وهذا يعني أن أذهب بها إلى المدرسة كل يوم. فكان ذلك يسترعي الانتباه. ولذلك أخبرت زميلاتي في المدرسة بأنني أعشق هذه التنورة التي أعدها أحب ملابسي على قلبي. وبما أنها عندي بهذه المنزلة، فقد اشترت لي والدتي ثلاثة تنانير منها. وقد لاقى ذلك استحساناً عند صديقاتي، أما الآن فربما سيقلن: «يا لها من وقاحة» لقد تقبلوا مني هذه الحكاية. واستطعت أن أحفظ السر وهو أن أسرتي كانت تضاهي في فقرها فئران الكنيسة. وبذلك استطعت أن أقي نفسي من نظرات الشفقة التي كانت تخيفني.

للأطفال أسرارهم للحيلولة دون النتائج السلبية

يتعلم الأطفال الكذب عندما يقومون بشيء ما. فإذا ما تناول طفل مثلاً كعكة دون أن يكون مسموحاً له بذلك، وسوف يعاقب عليه، فإنه في أغلب الظن لن يصبح طيعاً ومنضبطاً لا يتناول كعكة بعد ذلك البتة دون

أن يستأذن، بل الأرجح أنه في المرة الثانية سوف يتناولها سراً ثم ينكر فعلته إذا ما سئل عنها.

والأهل الذين يعتقدون أن طفلهم عاقلاً ولا يكذب، أو بالأحرى سوف يلحظون فوراً عندما لا يقول الطفل الحقيقة، سوف يتعلمون عبر نتائج الدراسة التالية، التي أعدها المختص في علم نفس الأطفال ميخائيل لويس مع زملائه، شيئاً أفضل:

تتم مراقبة طفل في غرفة بواسطة الفيديو. يجلس الطفل إلى طاولة وظهره باتجاه القائم بالتجربة الذي يعلن بأنه سوف ينزع غطاء لعبة رائعة سيسمح للطفل فيما بعد أن يلعب بها. لكن في الوقت الحاضر لا يُسمح له البتة أن يلتفت ويرى ماذا يعمل القائم على التجربة. وعندما يتم الكشف عن اللعبة وتركيبها يغادر مشرف التجربة الغرفة ويقول بأنه سيغيب لمدة خمس دقائق.

ولكن قبل ذلك يحذر الطفل الذي تجرى عليه التجربة مرة أخرى بألا يلقي بنظره البتة إلى اللعبة. فماذا يفعل الطفل؟ طبعاً سوف يخالف قرار المنع؛ لأن حب الإطلاع سيغلب: يلتفت ويحدّق في اللعبة. في هذه اللحظة يدخل مشرف التجربة إلى الغرفة ويسأل الطفل. هل نظرت؟ ويتم عند ذلك رصد رد فعل الطفل والانفعالات التي تظهر على وجهه.

تم نظام التجربة على أطفال بين 3-6 سنوات. أما النتيجة فلم ترق لبعض الآباء والأمهات:

قلة قليلة من الأطفال الصغار استطاعت أن تصمد أمام التجربة. 10% فقط من عمر ثلاث سنوات (أغلبهم بنات) لم ينظروا إلى اللعبة

obeikan.com

بعد أن خرج مشرف التجربة من الغرفة. وحتى من بين فئة ما فوق ثلاث سنوات، قلما تقيد أحد منهم بقواعد التجربة. فقط من فئة 6 سنوات استطاع 35% منهم أن يضبطوا أنفسهم ويتقيدوا بالمنع الذي فرضه عليهم مشرف التجربة.

وعند السؤال عن سلوكهم اعترف 38% من الأطفال الذين نظروا إلى اللعبة بالحقيقة. 38% منهم كذبوا وقالوا إنهم لم ينظروا إليها. 25% لم يقولوا شيئاً.

وجل الأطفال الذين كذبوا أو صمتوا كانوا من الإناث. وأولئك الذين قالوا الحقيقة كان حظهم من الذكاء أقل من أولئك الذين أنكروا مخالفتهم للقاعدة أو صمتوا.

واهتم العلماء أيضاً فيما إذا كانت تعابير وجوه الأطفال الكاذبين تفضح سرهم. هل ابتسموا بعصبية أو عضوا على شفاههم، أو تحاشوا تلاقي النظر؟ ثم عرضوا ما التقطه جهاز الفيديو (من دون المقطع الذي يُظهر مخالفة الأطفال) على مراقبين حياديين. فهل استطاع هؤلاء أن يكتشفوا من هو الكاذب منهم؟ لم يستطيعوا ذلك. لم يُعثر على فروق في تعابير الوجه بين الكذابين وبين الذين قالوا الحقيقة. لم يتمكن المراقبون من تحديد من هو الطفل الذي كذب ومن لم يكذب. وهذا يعني أن الأطفال ما بين 3-6 سنوات يمكنهم أن يخدعوا البالغين من دون الاعتراف.

إذاً يتم تعلم الخديعة والكذب في سن باكرة للحيلولة دون العقاب. وهنا يصح القول: كلما كان الأطفال أكبر سناً أو أكثر ذكاءً، كذبوا أكثر

وبطريقة أكثر مهارة. إن سماع مثل هذا الكلام مدعاة للرعب عند الكثير من الآباء والأمهات؛ لأنه لا يتناسب البتة مع مفهوم التربية السائد. بالإضافة إلى ذلك فلا ينتاب الأمهات والآباء الشعور الحسن عندما يضطرون إلى القبول إنهم لم يتعرفوا بما فيه الكفاية على العالم الداخلي لطفلهم ذي الأربع أو خمس السنوات؛ لأن من شأن ذلك أن يكون مدعاة للضرر والارتباك.

لكن عندما يكذب الأطفال ويتكتمون على شيء فإن ذلك عادة ليس مدعاة للقلق. وقضية أن الطفل يستطيع أن يكتم ما في قرارة نفسه عن البالغ تُظهر للطفل بأنه يعيش مستقلاً عن أهله وعن بقية الأشخاص. بذلك فقط يمكنه أن يفرض استقلاليته بكل معنى الكلمة. «فالتراكيب النفسية الفردية لا يمكن أن تتطور عندما تكتم شيئاً» كما قال المحلل النفسي الفرنسي «سيرج تيسيرون» الذي يضيف قائلاً: «إن اللحظة التي يكذب فيها الطفل الصغير أول مرة هي في غاية الأهمية. فهو يكتشف عدم قدرة أهله على قراءة أفكاره، وهذا ما يثبت له بأنه أصبح شخصية مستقلة قائمة بذاتها».

كما أكدت أيضاً الباحثة في مجال علاج الأسرة السيدة ايفان امبر - بلاك على الدور المهم للأسرار في تطور الطفل بقولها: «يسهم حفظ أسرار الأطفال الصغار على إدراك شخصيتهم القائمة بذاتها، ولها أفكارها ومشاعرها الخاصة، بحيث يجدون مخابئ مادية ونفسية ويكتشفون أيضاً الذات المستقلة».

والأطفال الين لديهم سر يشعرون بالقوة والثقة بالنفس والاستقلالية. والتعامل الباكر مع الأسرار هو نقاط علام مهمة على طريق تكوين الشخصية المستقلة. كما يقول المحلل سي . غ . يونغ C. G. Jung بأنه في سن العاشرة تقريباً نحت شكلاً وضعه في سرير وأخفاه ولم يستطع أحد أن يكشف هذا السر ويحطمه، فمسألة أن تكون صاحب سر لها تأثير قوي على شخصيتي وأعتقد أن ذلك كان حقيقة مهمة في طفولتي».

الأسرار حقيقة مهمة من حقائق الطفولة. هذا أيضاً ما تراه الباحثة المختصة في معالجة أمور الأسرة والأزواج روزماري - فيلتر اندرلين Rosmarie Welter – Enderlin.

فهي تتذكر طفولتها وأول خبراتها مع الأسرار فتقول: «في الأسرة الريفية الكبيرة التي ترعرعت بها أثناء «الخمسينيات الخرساء» اكتشفت باكراً بأن الأسرار التي يكتمها المرء على الآخرين كانت وسيلة للتخلص من الحصار المفروض من قبل الـ «نحن» القاهرة وتكوين الشعور بالأنا عبر إقامة الحدود حول المجالات الشخصية الخاصة. ففي البيت الكبير الذي قضيت فيه طفولتي، والذي تعيش فيه أسرتي والأقارب والخدم معاً، قلما كان هناك شيء يمكن أن يطلق عليه اسم المجال الخاص. ولكن بالرغم من ذلك خلقنا، نحن الأطفال، فرصة مواتية بإيجاد مخابئ صغيرة وخاصة بنا استطعنا أن نحفظ فيها أسرارنا».

لم تتعلم روزماري الصغيرة مجرد أن أسرارها تمنحها القوة، بل تعلمت في الوقت نفسه أن للبالغين أيضاً أسراراً يخفونها عن بعضهم بعضاً، «بما

أنني كنت الأكبر سناً بين الأطفال الخمسة في الأسرة والشخص الوسيط المثالي فقد أصبحت منذ وقت باكر حافظة الأسرار بين الأهل –وبخاصة في الأمور المالية– مثلاً عندما يكلفني والدي سراً بالذهاب إلى الكشك لأشتري له ورق يانصيب يأمل منها ربحاً وفيراً».

ويصف الكاتب شتيفان تسفايغ Stefan Zweig في قصة تحت عنوان «سر ملّح» مدى الجرعة التطورية التي تطرأ على معرفة الطفل مع إدراكه «بأن هناك سر».

مثال: سافر إدغار ذو الاثني عشر عاماً مع والدته إلى منتجع سيميرينغ لأسباب صحية، وهناك يتعرف إلى بارون شاب سرعان ما حاز على ثقة هذا الطفل. كان إدغار سعيداً أن يجد هناك صديقاً. لكن البارون لم يكن ليهتم بالصبي البتة؛ بل كان اهتمامه منصبّاً على والدته الجذابة. ولم يكن الصبي بالنسبة للبارون سوى وسيلة لغاية، فعن طريقه يريد أن يغزو قلب الأم. ونجحت الخطة: وقعت والدة إدغار في حب البارون الشاب. وأصبح اهتمامها منصباً عليه وحده، وأصبح وجود الصبي عبئاً على العاشقين.

شعر إدغار بالقلق والإهمال ولم يعد يفهم العالم ويتساءل مشككاً ما الذي جعل الصديق والأم يتغيران على هذا النحو. بدأ يدرك بأن للبالغين سراً لا يريدان البوح له به. وخمّن بأن ذلك يجب أن يكون مشابهاً لما حدث مع معلمته الفرنسية.

لقد تم رفدها ذات يوم بصورة مفاجئة، بحجة أنها لم تنسجم مع والده. لقد ملّ إدغار أنه أصبح دائماً هو المنبوذ، ويريد أخيراً أن ينفذ إلى

عالم الكبار الغامض. لم يعد يريد أن يكون ذلك الطفل الغبي، إنه يريد إفشاء سر والدته والبارون الشاب.

بدأ يتجسس عليهما وأصبح أكثر عناداً. وازداد الأمر حدة. أصبحت الأم تضرب إدغار بغضب لأنه تهجم على البارون، فوجد في ذلك سبباً – أراحه– للرحيل. وفي ثورة مشاعره انطلق ولجأ إلى جدته. وهناك تنتظره الأم حزينة وسرعان ما جاء الأب أيضاً يريد معرفة ماذا حدث للصبي.

كان في غاية السهولة بالنسبة للصبي أن يقص على والده كل شيء. وشعر أيضاً بحدسه بأن الحقيقة ستعفيه من العقاب. لكنه أيضاً تردد. نظر إلى والدته فرآها –ولفرط دهشته – ترسل له إشارات غريبة. لم يفهم أول الأمر ماذا تريد منه. لكنها بعد ذلك وضعت إصبعها في فمها ففهم بأنها ترجوه أن يسكت. وهنا طغى شعور عارم بالسعادة على إدغار لأنه أصبح الآن في اللعبة. إنه يعرف الآن سر والدته وأنه شريكها في الجريمة. لقد جعلت منه حليفاً ومشاركاً في معرفة شيء. إنه إذاً لم يعد طفلاً. فبإدراكه بأن لدى والدته سراً ترجوه ألا يبوح به أخرجه من جهالة الطفولة. إنه يعرف الآن أن هناك حدوداً بينه وبين والدته، كما أن هناك حدوداُ بين الأم والأب. إنه يعرف الآن بأن الناس لا يفصحون لبعضهم عن كل شيء، وليسوا مضطرين لذلك. وهكذا جعل النظر إلى عالم البالغين من إدغار إنساناً أكثر نضجاً.

وتحدّثت فيرينا عن وضع مشابه عندما سُئلت عن أولى أسرارها. التي تتذكر منها الآتي:

Obeikan.com

×

مثال: عندما كنت في نحو السادسة من عمري أحببت يوهان وهو أخ لأقرب صديقاتي إليّ. كان يكبرني بسنة واحدة ويبدو مدهشاً. طبعاً لم أخبر أحداً عن هذه المشاعر، حتى صديقتي نفسها، والشيء نفسه كان يعتمل في نفس يوهان. لأنه، ومن غريب الأمور كان دائماً أثناء ممارستنا للعبة الطبيب التي نلعبها سراً في المخزن خلف البيت يأخذ دور الطبيب وأنا ألعب دور المريضة. كان الموقف مشحوناً بالمشاعر التي لم نكن بعد قادرين على تصنيفها. كنا نتمتع بهذا التوتر في هذه الحالة المحرّمة علينا أصلاً. لم يعرف أحد من البالغين ما كنا نقوم به في المخزن، ولم يدرِ أحد من البالغين بماذا كنا نشعر. كل ما أدريه هو أنني شعرت آنذاك، وأول مرة، بأنني أصبحت بالغة تقريباً.

تساعد الأسرار الأطفال في اكتشاف حدودهم الذاتية. يدركون بأن هناك خطاً فاصلاً بينهم وبين الآخرين. ويمكن أن تكون لعدم حدوث هذه الخطوة المهمة من التطور، آثار وخيمة على التطور النفسي. فالأهل الذين لا يسمحون لأطفالهم بحرية التفكير والسلوك، والذين يقولون لهم بأنهم يعرفون كل شيء، ويمكنهم مراقبة كل شيء، فإنما يبقون عليهم في حالة غير صحية من الارتباط. إنهم يعطون الطفل الشعور بأن لا شيء يخصه شخصياً، ولا يحتاج إلى شيء، ولا يجب أن يملك شيئاً. مثل هؤلاء الأهل يرون في كل خطوة نحو الاستقلالية خطراً ويحاولون الحيلولة دون حدوثه. يمكن أن يسفر ذلك عن توترات نفسية في الحياة اللاحقة، إن لم يتعلم الأطفال من أشخاص آخرين أن الإرادة المستقلة لا ريب سليمة ومستحبّة. ومن لا تُتاح له، أثناء تطور مراحل حياته، الاستفادة من خبرات

استقلاليته الشخصية، ربما تنشأ عنده ذات خاطئة كما يطلق عليها المحلل النفسي دونالد . و. فينيكوت Donald . W . Winnicott. فالأشخاص من أصحاب الذات الخاطئة يقومون طواعية بكل ما يطلب منهم وينفذون رغبات الآخرين. أما المشاعر المتعلقة برغباتهم وحاجاتهم، فعلى العكس؛ إذ نراهم قد فقدوها. وهم لا يتصورون خلق شيء مستقل، ورأي مستقل وخطة حياة مستقلة عن الآخرين. إن ثمن هذا التكيف مرتفع: يمكن أن ينتج عنه شعور بالفراغ والعبث وحتى الإحباط. فإن لم يكن بمقدور إنسان ما أن يبني في طفولته حداً ثابتاً بينه وبين البالغين، ولا يسمح له بمعرفة الشعور بالراحة عندما يضع مجالات أسراره الصغيرة في مواجهة عالم البالغين الجبار، فسوف لن يتخلص من الشعور بالإحراج طوال حياته.

إذاً يجب على الأهل أن يتيحوا لأطفالهم مجالات رحبة ويسمحوا لهم أن يعيشوا حياتهم الخاصة. ولكن ذلك كثيراً ما يصعب على بعض الأمهات والآباء. ومما يجعل الأمر أكثر صعوبة هو أن جو الطفولة أيضاً لا يوفر إلا القليل من فرصة التكتم والتستر.

لقد عمل روغر هارت Roger Hart المختص في علم نفس الخاص بتطور الشخصية عدة عقود على نحو متواصل على أبحاث تتناول تغير ألعاب الأطفال، فوجد أنه في سبعينيات القرن العشرين كان الأطفال يهرعون عقب كتابة واجباتهم الدراسية للخروج من المنزل ويمضون ساعات وساعات مع أصدقائهم وصديقاتهم خارج البيت. وقلما عرف الأهل ماذا كانوا يفعلون. لقد وجدوا لأنفسهم مكاناً في العالم يكتشفون فيه محيطهم بأنفسهم أو مع آخرين في اللعب. كان مسموحاً لهم التحرك بحرية ودون أي رقابة،

لقد منحهم الأهل هذه الإمكانية. وبعد عقود من السنين أصبحت الصورة تختلف عما كان عليه. فقد أصبح الأهل الآن أكثر قلقاً على أطفالهم، ويعرفون بين الدقيقة والدقيقة أين هم وماذا يفعلون. لقد أثر هذا التطور سلباً على حرية الأطفال. كما يقول هذا الباحث. فمثلاً عندما سأل طفلاً عن مكانه السري المفضل لم يستطع الإجابة وحوّل السؤال إلى والدته. «وهذا ما كان قبلاً مالا يمكن تصوره؛ إذ كان أكثر الأطفال يلعبون آنذاك في أماكن لم يسبق لأهلهم أن كانوا بها» كما يقول الباحث.

ولكي يتطور طفل لا يتمتع بالحرية إلى إنسان بالغ حر يجب أن يُمنح إمكانية أن تكون له أسرار. ويجب السماح له بالحصول على الخبرة الإيجابية بأنه توجد أشياء وأفكار وسلوكيات تخص ذاته فقط. فالرقابة الدائمة والإشراف المستمر تحول دون التطور إلى الذات المستقرة والثابتة.

ومن لم تتوافر له فرص التمتع بعالمه السري في طفولته وخضع لمراقبة الأهل الدائمة. فإنه سوف يعوض ذلك، أو بعضه، في سن البلوغ. فالسر يفيد في الدفاع عن النفس ضد رقابة الأهل ووضع حد لأوامرهم ونواهيهم. وعلى سبيل المثال فقد أعلن رجل في رد فعله على إعلاننا «البحث عن الأسرار» بأن سره -عنده نقطة ضعف بالنسبة لتنانير النساء- هو إعلان الاستقلال عن أهله.

«وقد زودني هذا السر بالقوة التي تمكنت بها من إخفاء شيء عن أهلي، وذلك لأنني من أسرة محافظة جداً جداً، بل رجعية تقريباً، لا تجيز للأطفال أن تكون لديهم أسرارهم، ولا سيما تجاه الأهل».

لماذا تعد الأسرار عاملاً مهماً في تنمية الاستقلالية؟

عندما يكتشف طفل أن بإمكانه أن يكتم شيئاً عن البالغين، يكون بذلك قد تعرّف نفسه بوصفه كائناً مستقلاً وحراً بذاته. يدرك أن باستطاعته تحقيق وجوده بمعزل عن أهله وأن هؤلاء ليسوا قادرين على كل شيء. هذا الإدراك ضروري جداً لتطوره النفسي المستقر، فمن دون كتمان السر لا يمكن التفكير بتطور الطفل إلى إنسان يتمتع بشخصية مستقلة. فالذات المستقلة تأخذ بدايتها في أسرار الطفولة الصغيرة والبريئة.

2- الأسرار تؤمن الحماية:

كيف سيكون رد فعلك عندما تتلقى هدية لا تروق لك من إحدى الصديقات؟

هل ستقول الحقيقة كما فعلت إحدى صديقاتي قبل سنوات وبمنتهى الجرأة؟ فعندما أهديتها تي- شيرت بمناسبة عيد ميلادها، ردت بعجلة: «لا تعجبني هذه القطعة على الإطلاق، فلونها لا يلائمني البتة. أرجو أن تأخذيها فلا مكان لها عندي إلا في الدرج» أم ستبتسم وتقول بكل تهذيب: «شكراً، إنها جميلة». ربما ستختار الطريق الأسهل الذي يساعد مقدمة الهدية على حفظ ماء الوجه، وتوفر على نفسك ضغوطاً نفسية لا لزوم لها؛ لأنك لو قلت الحقيقة فسوف تنتابك حتماً ضغوط نفسية. كما حدث لصديقتي الصادقة التي كان عليها أن تتحمل خيبة أملي واستيائي.

حالة أخرى مشابهة: أنت مدعو لتناول طعام العشاء، الطعام تقشعر منه الأبدان. أخيراً تسألك السيدة صاحبة الدعوة فيما إذا كان الطعام

لذيذاً، فهل تقول بكل صدق «كان شديد الملوحة ودسماً إلى أبعد الحدود» ربما لن تقول ذلك. وكذلك الأمر بالنسبة للزوج الذي لا يعجبه ثوب زوجته الجديد فيدمر فرح الزوجة بتصريحه الصادق. من الأفضل أن يعمد إلى كذبة ظريفة تفرح بها الزوجة ويشعر هو بالارتياح؛ لأنه لم يخدش مشاعرها بأسلوب لا لزوم له؛ إنه يكتم رأيه الحقيقي تماماً كما تكتم أفكارك حول فنون طبخ السيدة التي دعتك للعشاء، فالكذب في مثل هذه الحالات يعد كذباً محبباً. إنه يراعي شعور الآخرين ويسهم في العيش المشترك بلا حزازات، ويحول دون صراعات لا لزوم لها.

كذلك الزوج الذي يطلب أثناء سفراته لأمور تتعلق بالعمل، فيلم فيديو إباحي عن طريق قناة الفندق التلفازية، فإنه يتصرف بكل لباقة عندما لا يحكي لزوجته عن ذلك؛ لأنه يوفر عليها غيرة لا لزوم لها. وفي الوقت نفسه يقي نفسه أيضاً من النقد الذي يمكن أن توجهه له. وليس ذلك فقط: لأنه يستخدم حقه في أن يكون له جوه الخاص. وعبر سكوته يضع حدوداً بين حياته وحياة زوجته. فهناك مجالات لا يسمح لها بالولوج إليها.

فربما صان أيضاً عبر كتمانه صورة الزوج الواثق من نفسه والقوي، الراسخة في ذهن زوجته، فهو عبر أسفاره المهنية يشعر غالباً بالوحدة فيتغلب على هذا الشعور بمساعدة هذه الأفلام الإباحية التي يعدّها أموراً لا صلة لزوجته بها. فحفاظ الزوج لسره يعد حباً لزوجته وحباً لنفسه أيضاً.

باتريسيا نيل عشيقة الممثل المتزوج غاري كوبر لسنوات طويلة تصرفت أيضاً بدافع الحب. فقد كتبت في سيرتها الذاتية تحت عنوان «كما أنا» As

I am أن غاري كوبر عاد مرة من جولة تسوق بوجه يشع سعادة، فقد أحضر لها معه مفاجأة فريدة من نوعها في أحد الأكياس، وهي فستان صيفي أحمر عليه نقط بيضاء. لم تبد باتريسيا عظيم اهتمام بالهدية. فالفستان لم يكن على مقاسها ولم تكن تفصيلته جيدة فتذمرت قليلاً. ولكي لا تخيب أمل عشيقها فقد ذهبت بالفستان سراً إلى الخياطة التي أدخلت عليه التعديلات المطلوبة، دون أن يكتشف غاري كوبر هذه الخدعة. أحياناً -كما تقول باتريسيا نيل- من الأفضل للمرأة أن تعمد إلى عذر من أن تقول الحقيقة.

إذن أخفت باتريسيا نيل سراً صغيراً قليل الأهمية عن عشيقها. لكن أسراراً لطيفة مثل هذه، مهما بدت تافهة، تعد رشوة مهمة للحفاظ على العلاقات. فمن دونها لا يمكن تحقيق الصداقات والعلاقات الأسرية أو علاقات الحب على المدى الطويل. فلا يمكن للمرء أن يكون صادقاً على نحو مطلق إلا إذا كان الآخر لا يعني له شيئاً، كأن لا يريد أن يراه ثانية أو يريد أن يحذفه من حياته. أما في العلاقات الوثيقة فعلى العكس، يجب أن تكون هناك أسرار وكتمان ورهافة إحساس وصمت حول أشياء يمكن أن تجرح الآخر بلا مسوّغ، أو من شأنها أن تفضح حياة الإنسان الداخلية بمنتهى الصراحة.

فإذا ما سكتنا عن أفكارنا ومشاعرنا في ظروف اجتماعية معينة، فإننا نسيطر على مجريات حياتنا اليومية على نحو أفضل، ونقي أنفسنا والآخرين من مشكلات نحن في غنى عنها. وهنا نجد في الكذب البريء عوناً حسب شعار «هذه التسريحة تناسبك جداً» أو «لا لم يزدد وزنك البتة».

وكذلك أيضاً يساعدنا الكذب المتمحور حول الذات الذي نحاول بواسطته أن نخفي به مصالحنا الذاتية مثل قولنا «لا، لم أكن قاسياً على الحارس» أو «لا مشكلة لدي مع وزني الزائد» أو «كيف خطر بذهنك بأن هذا الرجل قد أثار إعجابي أثناء الحفلة» إننا نلقي بمعطف الصمت حول بعض الأشياء والأسرار في حياتنا لأننا نخاف ردود فعل الآخرين ولأننا نريد أن نقيهم من خيبة الأمل ونقلل من حجم الإرهاق النفسي في العلاقات بين الناس. فالأسرار هي دروع حماية تساعدنا على الاحتفاظ بأفكارنا الحقيقية ومشاعرنا لأنفسنا وتزيد في هنائنا (وهناء الآخرين أيضاً في حالات عديدة). ولو كنا غير قادرين إطلاقاً على حفظ السر، لكنا مضطرين إلى تحمل الحقائق الثقيلة غير المصانة، لأن الصراحة التامة لا بد وأن تؤدي إلى جرح مشاعر الآخرين، ولكان التعايش الاجتماعي قد انتهى بذلك. فالصدق الدائم يسبب لنا وللآخرين الكثير من الجراح بحيث يغدو التعامل الصادق بين الناس غير ممكن. فالشك وخيبة الأمل والإهانات ستصبح عندئذ من الأمور اليومية.

الصمت عند شعور المرء بأنه لا يملك القوة المطلوبة بعد:

تبدو أهمية الحفاظ على السر غالباً واضحة عبر أمور تافهة سبق الحديث عنها، مثل هدية غير مناسبة، أو تناول طعام سيِّئ المذاق، أو تسريحة شعر غير موفقة. كم هو جميل ومريح للأعصاب عندما لا يشعر الشخص الذي نقف أمامه وجهاً لوجه بحقيقة ما نفكر به!

الأهم من ذلك والأكثر قيمة هو فن الحفاظ على السر عندما يتعلق الأمر بشيء في غاية الأهمية نخفيه عن الآخرين لأننا نريد وقاية

أنفسنا من عدم تفهمهم وانتقادهم أو من خيبة أملهم. وهذا ما أظهرته مقابلات مفصلة أجرتها العالمتان الأمريكيتان «لوسي فونتان فيرث» و«جيني فلارتي» مع أربع نساء يحملن أسراراً. أرادت العالمتان من هؤلاء النسوة ليس فقط مجرد الاطلاع على سرهن، بل أبدتا بالدرجة الأولى جل اهتمامهن بالدوافع: لماذا كتمن الحقيقة؟ ما هي أسباب صمتهن؟

في الحالة الأولى ارتكبت سيدة سحاقية خيانة بحق صديقتها على مدى سنوات طويلة- التي لم تكن تريد أن تقيم علاقة جنسية إلا معها- مع سيدة أخرى. استمرت هذه الخيانة نحو ستة أشهر، ولم ينكشف السر. وإجابة على السؤال: لماذا؟ قالت هذه السيدة للعالمتين: «كان تصرفي بدافع الخوف، أردت أن أحمي نفسي. وخفت أن تتغير علاقتي الدائمة وتصبح أقل قوة، وهذا ما لم أكن أرغب به».

وفي الحالة الثانية أيضاً يتعلق الأمر أيضاً بحبٍ سحاقي. هنا خُدعت والدة المرأة التي أجريت معها المقابلة. ولكي لا تضطر إلى تبرير فعلتها أمام والدتها فقد أخفت عنها ميلها الجنسي. وبعد خمس سنوات من الحياة المزدوجة قامت الابنة بعدها طوعاً بكشف سرها. أما عن سبب إخفائها لهذا السر طوال تلك السنوات الطوال فقد قالت: «لم يكن لدي خيار آخر. كان اهتمامي الرئيس منصباً على حياتي الخاصة، أردت القيام بما كنت أرغب ودون مراعاة لأسرتي. كنت قد سئمت من الأسرة وأردت أن أعيش حياتي الخاصة». هنا منح السر هذه المرأة الوقاية الضرورية لتكوين حياتها الخاصة، كما ترغبها، دون أخذ تأثير الأم في الحسبان. وبعد خمس سنوات، عندما شعرت بأنها أصبحت قوية بما فيه الكفاية، استطاعت أن تتخلى عن هذا السر.

أما المرأة الثالثة التي أجريت معها المقابلة فقد كتمت أيضاً ولسنوات عديدة قضية شذوذها الجنسي. لكن تصرفها لم يكن بالدرجة الأولى من أجل الوقاية الذاتية، بل أرادت وقاية والدها. كانت تخاف أن يوجه أقسى أنواع اللوم. «يمكن لوالدي أن يعد أن كوني سحاقية هو خطأه. لم أكن أعلم ماذا كان يمكن أن يكون رد فعله، لكنني كنت أخاف ذلك، ببساطة لم يكن بإمكاني أن أخبره بذلك».

وفي الحالة الرابعة يتعلق الأمر بامرأة اضطرت بعد أربع سنوات من الزواج للقول إها لا تحب زوجها ولم تحبه البتة من قبل، لكنها لم تقل له ذلك. حافظت على سرها مدة أحد عشر عاماً، أخيراً أصبح بإمكانها أن تصارح شريك حياتها بالحقيقة، ومن ثم تم الطلاق بينهما، تقول: «بدأ السر عندما تكونت لدي فكرة بأنني لا أحب هذا الرجل ولا أطيقه. ولكنني استبعدت هذه الفكرة وأنكرتها عليه كلياً. بدأت حياة داخلية وخارجية». أما لماذا صمتت طويلاً فتجيب: «لم أكن أريد أن أقضي على حياتنا الزوجية. كان الزواج يبدو لي مقدساً، والطلاق خطيئة يجب على المرء أن يحول دون وقوعها. لكن لم أقل له الحقيقة لأنني كنت أريد حمايته». لكنها أيضاً كانت تنظر إلى وضعها عندما تقر «أخيراً تحول الحفاظ على السر إلى حماية ذاتية».

عبر هذه الحالات الأربع تبرز الوظيفة الوقائية للأسرار: ثلاث نساء جعلن من ميولهن الجنسية سراً، لأنهن أردن الوقاية من خيبة أمل الناس الذين يعيشون بينهم وعدم تفهمهم للموضوع. وفي الوقت نفسه تلبية رغباتهن الجنسية دون تأثير خارجي قدر الإمكان. وفي الحالة الرابعة

استخدمت الزوجة حقها في اختبار نفسها على مدى إحدى عشرة سنة فيما إذا كانت لديها القوة الكافية على الطلاق. حافظت على نفسها من طلاق خاطئ ومن تحميل نفسها أكثر مما تتحمل. وعندما رأت أنه أصبح لديها القوة الكافية استطاعت أن تستغني عن سرها والبوح لزوجها بأنها لم تعد تشعر نحوه بالحب.

هناك رواية ذكرتها «إيفا» ذات التسعة والخمسين عاماً رداً عن إعلاني تحت عنوان (البحث عن أسرار) تثبت أيضاً المفعول الواقي للأسرار. في هذه الحالة يصون السر ثلاثة أشخاص في آن واحد: المرأة وزوجها ورجلاً آخر سبق أن أقامت معه قبل عقود أول علاقة جنسية لها.

مثال: عندما كنت في سن السابعة عشرة مارست الجنس -وأول مرة- مع رجل يزيدني 18 عاماً. كنت آنذاك قد حصلت للتو على وظيفة بائعة وكان هو مديراً للفرع الذي أعمل فيه. وكان الأمر على النحو الآتي: كان متزوجاً وعنده طفلان صغيران. كنت صغيرة السن لكنني كنت أدرك أن وضع العشيقة لم يكن يناسبني. لقد عانيت كثيراً جداً الغيرة وعدم جدوى هذه العلاقة. وبعد سنة قطعتها وبحثت عن عمل آخر. والغريب في الأمر أن هذا الرجل حافظ على تواصله معي طوال هذه السنوات. فكان يتصل بي هاتفياً بين الحين والآخر، ثم أصبح يرسل لي رسائل بالبريد الالكتروني. احتفظ بي في مسيرة حياته وأراد أن يعرف كل شيء مهم في حياتي، لكنه لم يتوقف طويلاً عند مسألة زواجي وولادة طفلي. أما أنا فعلى العكس؛ إذ كنت على علم بكل مشكلاته مع ولديه. وذات يوم كتب لي عن إصابة زوجته بالسرطان -سرطان الثدي- وعلى مدى ست سنوات

كان يحكي لي عن العلاجات التي تتلقاها في كفاحها الناجح -كما يبدو- ضد هذا المرض. وأثناء كل تلك المدة قلما ألمح إلى علاقة الحب السابقة التي كانت تربطنا. أحياناً كان يسأل على نحو غير مباشر «كيف يبدو شكلك الآن؟ أما زلت ممشوقة القوام كما في السابق؟» ومرة طلب مني أن أرسل له صورتي بالبريد الإلكتروني. ثم ذات يوم أرسل لي نعوة زوجته التي خسرت معركتها مع السرطان. فأرسلت له تعازي الحارة كتابة. كيف كان علي أن أواسيه؟ فمع مرور عشرات السنين أصبح غريباً عني بالرغم من التواصل الذي لم أكن أعدّه أمراً عادياً. والأمر الأكثر مفاجأة ومحيراً هو أنه أرسل لي بعد وفاة زوجته ببضعة أسابيع رسالة غير عادية بالبريد الالكتروني شكرني فيها أول الأمر على عبارات التعزية التي كتبتها له وبضع كلمات عن أساه لفقدها. ثم دخل في الموضوع. أراد أن يلتقي بي وبأقرب وقت ممكن، وأن هناك الكثير ليقوله لي والآن حان وقته. فقد كان -حسب قوله- يعرف أن زوجته ستموت قبله، وأنني لم أغب عن ذهنه طوال السنين الماضية. ولو لم يكن آنذاك متزوجاً لكنت الزوجة التي سيقترن بها طوال حياته. والآن بإمكاننا أن نحول ما كان في السابق مستحيلاً إلى حقيقة. لقد تشوش ذهني. فهل نسي أنني كنت متزوجة؟ فكيف يمكنه أن يعتقد بأنني سوف انتظره أنا أيضاً؟ كان بودي وأنا في قمة اضطرابي أن أتكلم مع زوجي في هذا الموضوع. لكنني أدرك بالحدس بأن ذلك لا يمكن أن يكون لأنه لن يتفهم ذلك. وأنه من ثَمَّ حتماً سوف يستاء لأنني كتمت عنه تواصلي مع هذا الرجل طوال تلك السنوات. لم أحدثه عن ذلك لأنه بدا لي غير مهم، ولم أرد أن أدخل الشك إلى قلبه بلا فائدة. طبعاً أردت أيضاً أن أحمي نفسي من شكوكه وربما أيضاً من

غيرته. لم يكن بوسعي أن أطلعه على أي شيء عن الإغراءات العجيبة لحبيبي السابق. كان علي أن أصمت وأن أعالج اضطرابي بنفسي، فأصبحت، ومن دون أن أدري، حاملة سر. ولدي الآن مالا أستطيع أن أطلع زوجي عليه. لكن لم أكتم الحقيقة عن زوجي فقط. إذ لم أستطع أيضاً أن أقول للرجل الذي ظل يذكرني طيلة تلك السنوات بأنني لم أعد أكنّ له أي مشاعر. فقد تمسكت بأقرب الأشياء لدي: زواجي وأطفالي. لم أرد أن أزيد من حزنه وعذابه. وكان بإمكاني ذلك لو أخبرته بعدم اهتمامي بشخصه بطريقة صريحة وفجة.

وكذلك أيضاً هناك مفعول واقٍ للسر الذي تحتفظ به السيدة غونهيلده منذ عشرات السنين.

مثال: كنت في سن الحادية والعشرين عندما وقعت في الحب، في حب فارس أحلامي كما كنت أعتقد آنذاك. كان يعمل في أحد فروع شركة أمريكية مقرها في ألمانية، كان جميل الشكل وناجحاً في عمله، يكبرني بعشر سنوات، لكنني كنت أري في ذلك ميزة حسنة. كان قد تزوج في السابق وافترق عن زوجته، هكذا قال لي على الأقل. بقينا معاً نحو نصف السنة، أصبحت أثناءها حاملاً، ففرح بذلك ووعدني بإتمام الزواج، وقبل ذلك كان عليه أن يسافر إلى الولايات المتحدة لبضعة أشهر. ولم يكن ذلك مشكلة، وكان عليّ أثناء ذلك أن أقوم بالإعداد لحفلة الزفاف. رأيته في المطار آخر مرة، لم يعد بعدها البتة. ولم أستطع أول الأمر أن أعثر عليه مطلقاً. كان عليّ أن أقوم بدور البوليس السري في البحث عنه في الولايات المتحدة، ثم تبين أخيراً بأن له هناك زوجة وطفلان، فكانت تعاستي بلا حدود.

لم أكن عندها أريد الاستمرار في الحياة. ولم يوقفني عن الانتحار سوى الطفل البريء الذي أحمله في أحشائي، فقررت أن ألد الطفل، وهنا اختلقت قصة أخرى مختلفة، فقد أخبرت أسرتي، ومن ثَمّ ابنتي، بأن حبيبي قد مات في حادث مؤسف أثناء إحدى رحلاته إلى الولايات المتحدة، ولم تكن لي أي علاقة بأسرته. وأنا أعيش مع هذه الكذبة وتعيش معها ابنتي أيضاً حتى الآن. لقد حمتني هذه الكذبة آنذاك- في سنوات الخمسينيات التي كانت فيه العلاقات الاجتماعية صارمة- من التقريع، فاخترعت لابنتي أباً يمكن أن تترعرع وتعيش معه. وحتماً كانت ستكون حياتها صعبة فيما لو علمت بأن أباها لم يكن يريدها إطلاقاً.

من هذا المثال الأخير- تبدو بكل وضوح- ازدواجية الأسرار: فالرجل الذي جعل من أسرته التي تعيش في الولايات المتحدة سراً، ألحق أفدح الأضرار في حياة حبيبته الألمانية. بالنسبة لي كان هذا السر مقروناً بالمعاناة والأسى.

لكن حفظها للسر وعدم البوح بالحقيقة لابنتها جعل لهذا السر المدمر وظيفة واقعية.

وكذلك يبدو في كل الحالات الأخرى السابقة بأن حاملات الأسرار كنّ يخشين من الخسائر الكبرى والمشكلات فيما لو أفشين أسرارهن. فصمتهن ضمن لهن الحماية. فقد استطعن وهنّ محاطات بالأسرار أن يعشن حياتهن كما يرغبن دون حيرة وإرباك عبر المضايقات الخارجية. وفي الوقت نفسه حمى صمتهن أيضاً المقربين منهن، الذين- بالرغم أنهم من دون شك محبون ويحسنون النية- لا يستطيعون إظهار تفهمهم للحالات، وهذا ما كانت تخشاه السيدات المعنيات بهذه الأمور.

في صون الأسرار يمكن لخطط أن تنضج ولأهداف أن تختبر أو يتم التخلي عنها أو تحقيقها، وسوف نتطرق في الفصل القادم إلى هذا الجانب الهام من الأسرار «البيضاء» مفصلاً.

لماذا نحتاج إلى حفظ الأسرار؟

ما أجمل أن لا نضطر لقول كل شيء نفكر أو نحس به! لأنه فقط عندما نستطيع أن نسدل ستار الصمت على بعض أفكارنا وتصرفاتنا ومشاعرنا، يصبح التعامل الاجتماعي مع الآخرين ممكناً. فقط عندما نجعل من بعض ما يدور في ذهننا، أو ما نقوم به، سراً، نستطيع أن نقي أنفسنا والآخرين من الخيبة، ونقلل من المتاعب الناشئة عن العلاقات الإنسانية. ولو كنا غير قادرين على الإطلاق على حفظ السر لكنّا منكشفين كلياً على الآخرين- وهم كذلك بالنسبة لنا.

فعبر قدرتنا على حفظ السر وخيبات الأمل نبقي على الخيوط في أيدينا. فنحن نقرر إلى حد كبير كيف يجب أن ينظر إلينا الآخرون وأية معلومات يتلقونها منا وعنا وعنهم. فنحن نتحكم على النحو الأمثل الذي نريد أن ينظروا إلينا فيه وننظر إليهم

3- الأسرار تساعد على تحقيق الأهداف:

كان روي شيرر Roy Scherer ممثلاً موهوباً ووسيماً لكنه غير مشهور عندما تلقى في منتصف الخمسينيات عرضاً من هوليود. كانت تلك فرصته التي لو استغلها لكان أمامه مستقبل باهر في مجال التمثيل. لكن

كان عليه أن ينفذ شرطاً وضعه له منتجو الفيلم، وهو أن لا يكشف للملأ على أنه شاذ جنسياً. فوافق روي شيرر على الشرط، فأصبح بذلك وتحت اسمه الفني «روك هيدسون» نجماً عالمياً ومعبود النساء. أما توجهه الجنسي فقد ظل خافياً على الرأي العام، حتى عندما أصيب بالإيدز ورقد عام 1985، على فراش الموت لم يعترف بشذوذه الجنسي. لقد أخفى روك هيدسون حبه للرجال؛ لأنه أراد عبر ذلك الوصول إلى هدف، أراد أن يكون ممثلاً عالمياً ناجحاً، وساعده سره على بلوغ هذا الهدف.

أيضاً غودرون –ومن أجل تحقيق هدف يتعلق بالمهنة– لم تفصح عن أنها لا تحوز على المؤهل التعليمي الذي تتطلبه مهنتها. فقد كتمت سر أنها لم تؤد الامتحان الجامعي الذي يؤهلها لمهنة التدريس خوفاً من خفض مرتبتها المهنية، فكتمانها جعلها تصل إلى هدفها –العمل مدرِّسة– بالرغم من هذا العائق.

مثال: كان سري يعدّ لي ضرورة حياتية. فمن هذه الناحية عدّه بناءً. لم أسبب لأحد ضرراً نتيجة ذلك. والآن بعد 40 عاماً من العمل –الوظيفي– أصبحت في سن التقاعد. ويبدو أنني سوف أحمل سري معي إلى القبر. هل أعانيه؟ لا أعاني السر بحد ذاته، وإن كانت هناك معاناة فهي من السؤال الذي لم يتضح لي حتى الآن وهو: لماذا حدث ذلك؟

قال مدير مدرستي عند وداعي بأنني أجسد بالنسبة له النموذج الإيجابي للمدرس. لكن الشيء الذي لا يعرفه الغرباء ولا الأصدقاء والزملاء والمعارف والتلاميذ والأهل هو أنني بالرغم هذه الصورة

الإيجابية لم أكن موفقة البتة في مسألة مهمة. فبدءاً من الصف العاشر الذي بقيت فيه بأسلوب مريب؛ إذ لو لم يجد أهلي مدرسة خاصة مستعدة لقبولي في الصف الحادي عشر، لكان عليّ أن أعيد الصف. حصلت على الشهادة الثانوية بمعدل مقبول. ودرست في الجامعة الفرع الذي اخترته بنفسي وحقق لي كل المتعة. بالرغم من ذلك رسبت في الامتحان مرتين، فلم أبذل محاولة ثالثة.

أول تعيين لي في إحدى الشركات يعود إلى حقيقة أنني كنت شبه خريجة جامعية (كنت مع الأسف صادقة مع رب العمل فأطلعته على المأزق التي كنت فيه) وفي الوقت نفسه قيل لي دائماً بأن لا أبالي بمرتب أعلى أو بإمكانية الارتقاء الوظيفي نتيجة عدم وجود الشهادة.

وبعد أربع سنوات تركت العمل وحاولت الحصول على وظيفة مدرّسة في مدرسة ثانوية. والغريب في الأمر أن هذا الشيء قد تحقق. كان هناك نقص كبير في عدد المدرسين، ويبدو لي أن ذلك هو السبب الذي جعلني أحصل على الوظيفة. أما الآن فإن ذلك مستحيل. لقد تعلمت من صراحتي أمام رب عملي السابق. ولم يعلم مديرو المدرسة آنذاك الكثير عن شهاداتي، أو بالأحرى عدم وجود شهاداتي (فهذا من شأن السلطات وليس من شأن مديرو المدارس) حتى لزوجي (أو طليقي حالياً) لم أقل الحقيقة. وسوف لن يتصور شريك حياتي الحالي العالم عندما يكتشف أن المرأة الحبيبة التي تقف إلى جانبه هي جامعية من دون شهادة أو أنها رسبت في الامتحان.

لقد دفعت لقاء سري هذا، فلم أستطع الحصول على منصب. وقمت بتدريس عددٍ أكبر من الساعات واقتنعت بأجر أقل. كنت مستعدة لكل ذلك، لكن لم أكن مستعدة للإعلان طواعية بأنني خائبة وفاشلة.

إذا ما استطعنا أن نتفهم سر غودرون، فإن ذلك ليس من الأمور السهلة في الحالة اللاحقة: لماذا تجعل من حقيقة أن المرء يعمد إلى متابعة تعليمه للحصول على الشهادة الثانوية سراً؟ وهذا بحق هدف مشرّف ويستحق الإعجاب. بالرغم من ذلك لم تُطلع «أوتا» أحداً على ما تنوي القيام به. أربع سنوات داومت أثناءها أوتا كل مساء بعد وقت العمل في مدرسة ثانوية للعمال في مدينتها. وكانت تدرس المواد سراً في عطلة نهاية الأسبوع دون أن يعرف أحد من أصدقائها أو زميلاتها بهذا المشروع الطموح. لماذا جعلت منه سراً؟

مثال: لم أشأ أن أخبر أحداً بذلك لأنني لم أكن واثقة في بداية الأمر فيما إذا كنت سأنجح في تحقيقه. أولاً كان وقت العمل طويلاً. ثانياً لم أكن أعلم إن كنت بما يكفي من الذكاء لإنجاز متطلباته.

لم أشأ أن أحظى بالإعجاب لما أقوم به ومن ثَمّ بالعزاء عندما أفشل، ولم أشأ أيضاً أن يظن أصدقائي ومعارفي أنني أعدّ نفسي أفضل مما أنا.

كنت أعمل سكرتيرة، وما من أحد ممن يحيطون بي كان يحمل الشهادة الثانوية أو أنهى دراسة جامعية. وربما سيكون وضعي حرجاً ضمن هذا الإطار. وعندما أدركت أن الأمور تسير على نحو حسن وأنني سأتابع، لم أشأ بالرغم من ذلك الكشف عن سري؛ لأنني أخشى الآن أن

يشعر أصدقائي وزميلاتي بالفشل. مع الاحتمال أن أفشل أيضاً. لم أكشف سري إلا بعد أن حصلت على الثانوية وتركت عملي لدراسة الحقوق في المدينة القريبة مني.

لكن «ارمغارد» حققت هدفاً يختلف كل الاختلاف.

فعندما فشلت قصة حبها التي دامت طويلاً انتابتها حالة من الاكتئاب، فوصف لها طبيب الأسرة أول الأمر أدوية علاج نفسي. لكنها لم تتناولها إلا كارهة. فلم تتحسن حالتها. فوصف لها الطبيب فيما بعد تحليلاً نفسياً فوافقت. لكنها لم تخبر أحداً عن هذه الخطوة التي كانت هي نفسها تخافها جداً.

مثال: بالنسبة لي كان ذلك مخاطرة كبيرة. ولم أكن أدري بالضبط ما الذي أصابني. كنت أخشى أن لا أتحمل الأعباء المترتبة على العلاج. كان عليّ أن أستلقي ثلاث مرات أسبوعياً على الأريكة. كنت أخشى أيضاً ما يمكن أن يحدث أثناء العلاج، ولذلك لم أخبر أحداً بذلك. لم يكن عندي شريك يمكن أن يسترعي انتباهه غيابي ثلاث مرات في الأسبوع. كانت مواعيدي دائماً الساعة السابعة صباحاً، ولذلك لم يلحظ ذلك أحد في الشركة التي أعمل فيها. لكن لم يكن الخوف وحده هو الذي دفعني إلى الصمت، فقد أدركت منذ البداية أن ذلك كان أمراً يخصني وحدي. والساعات التي كنت أقضيها بين يدي المحللة النفسانية هي ملكي وحدي والقاعة أيضاً ملكي. لم أكن أريد أن يتدخل الآخرون عبر أسئلتهم وعبر فضولهم أو عبر تقويماتهم في هذا المجال.

obeikan.com

كانت المعالجة أمراً يخصني وحدي. والأمر يعود لي وحدي أيضاً في كتمانها أو عدمه. أردت أن أُبقي على كافة الخيارات.

يتيح السر للمرء أن يضع صيغة للحياة على محك التجربة. فقبل أن يتخذ المرء قراراً نهائياً يمكنه أن يختبر أولاً فيما إذا كان الاتجاه الذي قرره صحيحاً حقاً دون أن يُطلع محيطه عليه ويتعرض لانتقاداته أو لاقتراحاته. فالسر يوفر للمرء الوقت، فأحياناً تحتاج خطة ما أو مشروع ما إلى النضج وأحياناً يحتاج المرء إلى الشجاعة والقوة لوضع عمل ما موضع التطبيق. حتى عندما يقع رجل وامرأة في الحب يُنصح بإبقاء ذلك طي الكتمان أول الأول حتى مع عدم وجود أسباب خارجية توجب ذلك (مثل حالة وجود زواج سابق، أو صعوبات في مكان العمل أو أي عقبات أخرى كما مر معنا سابقاً).

ففي بداية علاقة الحب هناك الكثير من الشكوك والظنون، مثل: هل هو فعلاً الرجل المناسب؟ هل هي فتاة الأحلام التي طال انتظاره لها؟ هل يحب المرء حقاً؟ هل يناسب أحدهما الآخر؟ هل يمكن لأحدهما أن يتحمل صفة مزعجة عند الشريك الذي سيتخذه للأبد؟ ولذلك يقال: اختبر من يمكن الارتباط به للأبد. وعلى الأقل في بداية علاقة الحب يمكن أن يكون الاختبار في السر- بعيداً عن فضول ونصائح المقربين- مجدياً.

وقد سبق أن كتبت «آنّا ماجدالينا باخ» في دفتر مذكراتها النصيحة الحكيمة:

إذا ما أردت أن تهبني قلبك

فابدأ بذلك سراً

بحيث لا يطلع أحد

على تفكير أي منا

أما «ماريا» (40 عاماً) فلم تكن تعرف هذه النصيحة، لكنها قررت بحدسها أن تعمد إلى الكتمان عندما وقعت في حب أحد زملائها.

مثال: لم تعد ماريا، العاملة في إحدى دور النشر، تفهم العالم بعد أن تعرَّفت أثناء دورة تأهيل زميلاً لها كان حتى ذلك الوقت غريباً عنها.

كانت مشوشة الذهن لأنها لم يسبق لها أن حسبت حساب مثل هذه المشاعر الجياشة. أصلاً كانت قد تأقلمت جيداً مع حالة العزوبة، وأقلعت منذ وقت طويل عن أي أمل بعلاقة ثابتة مع رجل. كان وضعها جيداً، كان لها أصدقاء وصديقات وسعادة كبيرة في مهنتها. كانت تستطيع أن تفعل أو تترك ما يروق لها. والآن حدث ذلك. رجل يدخل حياتها كشريك ومشروع زواج. أصلاً كان من الممكن أن أعلن سعادتي على الملأ. لكن أردت كتمان هذه القضية، التي سرعان ما تطورت إلى علاقة في آخر كل أسبوع؛ لأننا كنا نسكن في مدينتين مختلفتين. كان ينبغي عليّ أول الأمر أن أتأكد من مشاعري، ما الذي كنت أريده أو فيما إذا كان الرجل حقاً رائعاً كما كنت أظن.

بقينا معاً نصف سنة دون أن يدري أحد بعلاقتنا، ثم أدركت بأنني كنت أحب حياتي السابقة أكثر من هذا الرجل. كنت في غاية السعادة لأن

أحداً من دائرة أصدقائي ومعارفي لم يعلم شيئاً عن هذه العلاقة. وهكذا لم أكن بحاجة إلى إيضاح أي شيء أو تبرير أي شيء. وسوف أتصرف على هذا النحو فيما لو تكرر ذلك معي مرة أخرى. لقد أتاح لي سري وقتاً لاتخاذ قراري دون أي تأثير من الآخرين، مثل صديقاتي ذوات النية الحسنة، أو معارفي الحاسدين.

عبر إخفاء المشاعر يضع المحبون حداً بين جوهم الحميمي وبين الحياة العامة. يحفظون أنفسهم لمدة من فضول الآخرين، وبذلك يمكن للحب أن يصبح أكثر استقراراً. وبعد أن يصبح الحب مستقراً بما فيه الكفاية، يعرف الطرفان المتحابان بأنهما تجاوزا دهشة وفضول وشكوك المحيطين بهم، ويمكنهما الخروج من شرنقة السر الواقية.

ويمكن أن يكون الأمر غير ذلك، فمن الأمور التي يمكن التفكير فيها أن شريكين يجربان- تحت حماية السر- حياتهما معاً ثم يقرران بعدها بأنهما لا يصلحان لبعضهما. أيضاً في هذه الحالة يكون من الذكاء أن لا يكثر عدد الذين على دراية بعلاقتهما.

كانت «إلينا» على حق عندما أخفت عن أهلها وأصدقائها علاقتها مع رجل يكبرها بالسن كثيراً:

مثال: أنا شابة في منتصف العشرينات. بعد أن أنهيت تعليمي في المدرسة بدأت بالدراسة الجامعية وسجلت في دورات لتعلم لغة الإشارات. وهناك تعرّفت رجلاً يكبرني بإحدى عشرة سنة. كان سمعه ثقيلاً جداً، الأمر الذي لم يسبب لي أي إزعاج لأنني كنت قادرة على التحدث معه بلغة الإشارة على نحو جيد. أحببنا بعضنا، ثم انتقلنا إلى منزل مشترك. لاقى

obeikan.com

قبولاً من أصدقائي وشعرت بالسعادة عنده. أما الأمر الذي ضايقني فهو أن أهلي رفضوه رفضاً قاطعاً. نعم لقد كرهوه بالفعل. والسبب الأساسي هو أنهم ظنوا أنني سأضيع حياتي وأنني كنت أستحق من هو أفضل من صاحب هذه العاهة.

بعد مضي نحو سنتين على علاقتنا وقعنا -صديقي وأنا- في أزمة. لم تكن بالأزمة الشديدة، لكن لم أعد أذكر ما هي. استغل أهلي هذه الفرصة وحاولوا إقناعي بالتخلي عنه، وهذا ما وقع بالفعل. ساءت حالتي أثناء المدة التي تلت ذلك، فعدت والتقيت بصديقي ثقيل السمع، وكنت ما أزال أحبه. ولكن لم أكن من القوة بمكان بحيث أقوى على مبارزة أهلي. فقررنا أن نحافظ على علاقتنا المتجددة في منتهى السرية. فلم نكن نلتقي أول الأمر إلا في منزل أحدنا وتحت إجراءات وقاية صارمة. بعدها صرنا نجرؤ على الخروج معاً في نزهة أو الذهاب إلى المطعم. وحافظنا على كتمان علاقتنا حتى عن أصدقائي. وبالرغم من أنه كان من الصعب الحفاظ على هذه التركيبة القائمة على الكذب، كنت أشعر بالسعادة والحرية.

وبعد عام أنهيت هذه العلاقة. وكانت هذه المرة برغبة مني. ففارق السن أدى هنا دوراً أساسياً، وكذلك حقيقة أنه لكل منا نهج مختلف في الحياة، ووقعت في حب رجل آخر. وحتى الآن لا يعلم أحد أننا ومنذ ما يزيد عن العام كنا نعيش كشريكين.

إنه لقرار حكيم أن يحب المرء ويعيش على التجربة عندما لا يكون واثقاً، وعندما لا يشعر بأنه من القوة بمكان للوقوف في مواجهة آراء وممانعات

الآخرين، وعندما لا تكون قد توفرت لديه الجرأة بعد على الدفاع عن قرار ربما يكون غير عادي أو عنيد. فتحت الحماية التي يوفرها السر يمكن للمرء أن يجمع قواه ويختبر بنفسه، ومن ثم يفعل ما يراه مناسباً على نحو حر ودون تأثير من أحد.

التخطيط في السر:

تحفظ الأسرار خططنا وتساعدنا على تحقيق أهدافنا. لكنها تساعدنا أيضاً على التخلي عن أهدافنا عندما يثبت أن في الأمر شططاً، أو أنها غير مجدية. فعندما لا نتحدث مع آخرين في وقت باكر عما تنوي فعله، يمكننا أن نمعن التفكير فيه ونطوره أو نرفضه أو نتخلى عنه كلياً. أحياناً لا نعرف حقيقة المعرفة فيما إذا كانت الخطة التي وضعناها جيدة حقاً. غالباً ما نسلك طرقاً ملتوية -نتيجة عدم الثقة أو عدم المعرفة- للوصل إلى هدف. وأحياناً لا نستطيع اتخاذ القرار، ولذلك ننتظر ونتأنى.

وعندما نخرج كل ذلك في وقت باكر للعلن، فإنما نكون بذلك قد دعونا الآخرين على نحو حقيقي للتدخل في شؤوننا. فبالاقتراحات الجيدة مثل «لو كنت في مكانك لفعلت كذا» وبالضغط مثل «لقد آن لك أن تعرف ماذا تريد»، وبعدم التفهم مثل «ما كل هذا؟». أو بتثبيط الهمة مثل «أنت تعلم أن صديقتك آنّا قد منيت بالفشل بخطة كهذه قبل وقت قصير»، لذلك علينا إخفاء الخطط والأفكار والرغبات غير الناضجة بعد، أو تلك غير المعروفة للآخرين أو حتى ربما كانت خطيرة. ومن يكون هنا منفتح القلب فإنه يواجه خطر أن تذري الرياح خططه أو أن يفقد الجرأة أحياناً،

ويصبح من الصعب الاعتراف بالفشل عندما تكون الخطة معروفة من قبل العديد من الناس. وكل من يشعر بأن أنظار الآخرين مصوّبة نحوه يعرف الشعور بعدم إمكانية التراجع.

أما «أنغريت» فقد حدث معها الآتي: لقد تجاوبت مع إعلاننا «البحث عن أسرار» ليس لأن لديها سراً، بل أسفٌ لأنها تخلت عن سر في مرحلة مهمة من حياتها. قصّت لي حكايتها على الهاتف.

مثال: أردت أخيراً بعد سنوات عديدة قضيتها في الوظيفة أن أنحو نحو الاستقلالية. بالرغم من أنني -باعتباري موظفة ذات اختصاص- كنت أتقاضى راتباً جيداً، لكن العمل كان مملاً. كان حلمي أن أحقق ذاتي في مكتب مستقل. وبما أنني كنت أقوم بين حين وآخر ببعض الأعمال المكتبية فقد كانت لدي الثقة بافتتاح مثل هذا المكتب. ولكي اخفف من المغامرة فقد تحولت إلى نصف موظفة، أي أقوم بنصف مدة العمل المطلوبة من الموظف العادي. ولشدة غبائي فقد أطلعت الجميع على هذا التصرف. بعضهم أبدى إعجابه بي والبعض الآخر حسده لي. وبالتأكيد كان هناك من توقع لي الفشل. كنت أعرف ذلك ولكن لم أهتم للأمر. كنت مقتنعة بأن مشروعي سيلاقي النجاح. سارت الأمور على نحو جيد أول الأمر، ورداً على إعلاناتي، والطلبات التي تقدمت بها لدى الشركات، حصلت على طلبات تنفيذ أمور مكتبية. لكنني لم أحسب حساب الوقت. فقد أخذ مني العمل وقتاً أطول جداً مما توقعت وخططت، فلم يكن ما توقعت. أخيراً هبط دخلي إلى خمسة يورو في الساعة، وبالرغم من ذلك لم أستسلم.

واستمرت المحاولة، ولكن تبين لي فيما بعد بأنني لم أكن بالسرعة التي يتطلبها هذا العمل. والأنكى من ذلك أن العمل في جو الوحدة لم يعجبني البتة، وكذلك استجداء أصحاب الطلبات المقتدرين. كان من الأفضل كثيراً لو أنني عمدت إلى استشارة قبل الإقدام على ذلك.

بعد نحو السنة أردت أن أستعيد وضعي بوصفي موظفة بدوام كامل، لكنني كنت أخجل أن أطلب ذلك. فماذا سيقول الزميلات والزملاء عني؟ طبعاً كان يمكن أن لا أقيم وزناً لذلك، ولكن الأمر لم يكن هكذا. والآن آسفة لأنني أطلعت على خططي المهنية بكل تفاؤل على كل من هب ودب. ولو أنني لم أقل شيئاً، أو على الأقل قدمت سبباً بريئاً، لما كان مطلوب مني أن أجيب باستمرار على أسئلة محرجة مثل «إيه. . . كيف تسير الأمور في مكتب المراسلات عندك؟» ولكان باستطاعتي أن أتابع عملي بكل ارتياح وطمأنينة في مجال التأمين. ولكنني استمررت طويلاً.

أخيراً قدمت استقالتي من وظيفتي، أو نصف وظيفتي، وبحثت عن عمل آخر. ولم يكن ذلك بالأمر السهل. كان عليّ أن أتحمل خصومات على الراتب بالإضافة إلى أن عملي الحالي ممل أكثر من العمل السابق.

لو أن «انغريت» جعلت من خططها سراً لكانت وفرت على نفسها الكثير.

يظهر من حكايتها: عندما يتعلق الأمر بمسالة أساسية أو قرار له أبعاده، فليس من الخطأ اتخاذ لاعبي الشطرنج قدوة. فهؤلاء يحافظون على سرية خططهم في اللعب من أجل تحقيق الانتصار في نهاية الأمر.

طبعاً لا يعني ذلك أن يجعل المرء من قلبه مقبرة. فمن البديهي أن يعمد المرء إلى استشارة من يثق بهم عند اتخاذ قرارات مهمة. لكن عندما يكون هو نفسه متردداً، وعندما يؤثر تحقيق الخطط الشخصية سلباً على الآخرين وكان يحسب حساب تراجعه، فإنه من الأجدى، في أكثر الحالات، أن لا يكشف المرء عن خططه على قارعة الطريق.

لو كانت غودرون قد أخبرت أحداً بخطتها على التقدم لوظيفة معلمة دون أن تؤدي امتحان التخرج في الجامعة لكان من المحتمل جداً أن تصاب بالإحباط، ولكان كل من يحيط بها قد حذرها بحسن نية وتوقع لها الفشل.

ولو أن أوتا أطلعت الذين حولها على خطط عملها، فربما ما استطاعت الاستمرار فيه. وهي نفسها تقول في هذا الصدد: مررت بمرحلة كنت فيها في منتهى الإرهاق، انخفض وزني كثيراً والكل يسألني إن كنت مريضة. ولو علموا بأن الأمر هو مسألة عبء مزدوج -المدرسة والعمل- لنصحوني، وربما ضعفت أمام نصائحهم. كنت في تلك المدة محطمة.

ولو أن أرمغارد قد أخبرت الآخرين عن علاجها النفسي لكانت ربما قد اضطرت إلى التبرير. ومن سبق أن مر بمثل تلك التجربة ربما يعرف الآراء والمبررات التي يحملها الآخرين عن العلاج النفسي مثل «بماذا يفيد ذلك؟»، «هل تذهبين ثلاث مرات بالأسبوع؟ هذا كثير جداً فأنا أعرف معالجاً لا يرى زبونه إلا كل أسبوعين مرة». أو الحجة القائلة «أما زلت تذهبين للمعالجة؟ يبدو أن لا فائدة منها».

لماذا يمكن للمرء أن يحقق أهدافه على نحو أفضل بواسطة الأسرار؟

يجب أن تبقى الأهداف والأفكار والخطط والرغبات طي الكتمان طالما احتاج الإنسان إلى حيز آمن من أجل تجاربه. يخلو من المشاهدين الذين يمكن أن يكون لهم تأثير عبر آرائهم ومقترحاتهم وتحذيراتهم. وفي مرحلة حفظ السر يمكن للمرء أن يختبر خططاً أو يستبعدها أو يراجعها أو يدفنها إلى الأبد، سواء أكان ذلك يتعلق بعلاقة سرية أو علاقة حب أو هدف وظيفي أو هواية أو فكرة غامضة تتعلق بالمستقبل.

هناك حاجة إلى السر طالما أن الرحلة المؤدية إلى الشيء لم تتضح بعد. وعندما يتم اتخاذ القرار يكون السر قد قام بوظيفته خير قيام، ولم تعد هناك حاجة إليه ويمكن الإفصاح عنه. وأحياناً يحتاج المرء إلى كتمان السر بصورة دائمة، وقد يستمر ذلك مدى الحياة.

4- الأسرار تحافظ على الجو الخاص:

قدم الممثل أوتغريد فيشر عام 2006، ولمدة أسبوع، مادة تشكل عناوين للصحف، فقد عشق عاهرة من وسط الأضواء الحمراء في فيينا، وأعلن ذلك على الملأ. ومن غير تكلف قدم فيشر وزوجتاه الاثنتان خدمة للصحافة الصفراء وفضحوا أكثر مشاعرهم خصوصية والنتائج المترتبة عليها.

وبوصفه قارئاً أم مشاهداً أمام التلفاز يجد المرء نفسه مسحوراً، وفي القدر نفسه مشمئزاً، من مثل هذا الإقرار الذاتي المخزي. مسحوراً لأن

ما من أحد بالطبع يخلو من الفضول والشماتة، ومشمئزاً لأن الثرثرة الحميمة تثير شعوراً غير مريح؛ إذ يلاحظ المرء أنه هنا مثلاً قد تم تجاوز الحدود. أصلاً يجب أن لا يعلم المرء شيئاً عن ذلك، لأن مثل هذه الموضوعات يجب أن تبقى خلف الأبواب المقفلة. ويعد ذلك مخزياً لأنه حميمي جداً وخاص جداً. أما سبب الانزعاج فهو أن المرء يتعرَّف أشياءَ كان يجب أن لا تخرج خارج الجدران الأربعة لأبطالها. لكن هؤلاء يثيرون، عبر حبهم للثرثرة، حتى الرأي العام نفسه، للنظر من ثقب المفتاح، فهل يدرون بالفعل ما يفعلون؟

لم يعد ولع الصحافة الصفراء بكل جديد يثير المرء كثيراً، كذلك أيضاً النظر من ثقب المفتاح الذي تثيره الندوات التلفازية أثناء مدة بعد الظهر، أو برامج «بكمان» أو «كرنر» أو «باكيس» فقد اعتاد المرء عليها بحيث أصبحت الشخصيات المرموقة مثلها مثل المواطن العادي يفشي أشياءه الحميمة الخاصة جداً ولا تعرف حداً للمحرمات.

يمكن وصف هذا الاعتياد بأي شيء ماعدا أنه إيجابي، فهو يخفي حقيقة أن هناك قاعدة أساسية في مجتمعنا يتم خرقها على نحو فاضح. تقول هذه القاعدة: هناك فصل ما بين الجو الخاص والعام. ولكل إنسان الحق بالحفاظ على الحدود بين هذين العالمين. ووظيفتها هي أنها تجعلنا نعيش حياتنا بكرامة وتعقل؛ لأننا نحفظ حياتنا الداخلية، ومن ثم حريتنا الشخصية، من المتطفلين الذين لا شأن لهم بنا.

قبيلة البانتو الإفريقية تعلم أطفالها أن لا يقولوا للغرباء البتة الحقيقة حول الأشياء الخاصة. يُسمح لهم بالكذب لوقاية أسرهم من السحر

الضار. وبذلك تعلم البانتو أطفالها أن هناك عالمين، عالم خاص وآخر عام، وأن العالم الخاص يتطلب وقاية خاصة لكي لا يتدخل المنتمون إلى العالم العام في شؤون العالم الخاص.

ونحن أيضاً على دراية بهذين العالمين. ولذلك ننطلق ببداهة بأن ما من أحد يجب أن يطلّع على بريدنا الخاص، أو على مكالماتنا الهاتفية الخاصة وأن لا نكشف عن حساباتنا في المصارف أو نتحدث عن نتائج الفحوصات الطبية لرب العمل الذي نعمل عنده. وكذلك أيضاً لن يجيب أحد على أسئلة تتعلق بالدخل أو بوضعه الجنسي وعلاقاته الجنسية السابقة، وعن المشكلات النفسية، والنوازع الغريبة والنزوات. وعادة ما لا نتكلم عن القضايا الحميمة مثل نوعية الاستجابة الجنسية عند الشريك أو عن مفرزات أجسادنا.

لكن الجو الخاص يتضمن أكثر من ذلك. لأن أفكارنا وتجاربنا ورغباتنا وأحلامنا وهمومنا وأحزاننا هي أمور شخصية محضة، ومن ثمّ تستوجب الحفاظ عليها. يجب أن نصمت عندما نخجل، عندما نشعر بأننا فاشلون. وطالما نريد ذلك يجب أن لا نفشيه كما نفعل بالنسبة لمضمون رسائلنا. لنا الحق في الكتمان عندما يتعلق الأمر بمجمل حياتنا. ومارغريت تدرك ذلك تمام الإدراك.

× مثال: ببلوغي سن العشرين بدأت لدي الرغبة بتكوين أسرة، فحاولت أن أحمل بطفل لكن لم أوفق بذلك، وبعد بعض الوقت شاورت أنا وشريكي طبيباً، لكنه لم يعثر على سبب طبي يحول دون الحمل. وأنا في قمة اليأس

Obeikan.com

والشك أقمت اتصالاً مع مجموعة مساعدة ذاتية من نساء لا يردن أطفالاً. كانت هؤلاء النسوة جميعاً إلى حد ما غارقات في الأحلام. كن يبدين حزنهن وشكوكهن وحسدهن للأمهات -كما رأيت- بأسلوب مدمّر للذات. وصراحتهن زادت من الضغوط التي يتعرضن لها. كانت كل هؤلاء النسوة في حالة نفسية سيئة. ووجدت كل شيء يصيب بالإحباط، فلم أعد أتصل معهن البتة؛ لأنني وجدت أن هذه الصراحة تشدني نحو الأسفل.

يضاف إلى ذلك معايشتي لحماتي، فعندما أجريت لإحدى القريبات عملية جراحية كانت حماتي ترى أنها لم تعد امرأة كما يجب أن تكون النساء، وكان واضحاً بالنسبة لي: لو علمت حماتي بأنني غير قادرة على الإنجاب، لانطبق عليّ هذا الوصف، أي «امرأة غير طبيعية». فالمحيط يقيم عدم الإنجاب تقويماً غير أخلاقي البتة، فالمرأة لا قيمة لها إلا إذا كانت قادرة على إنجاب الأطفال.

وهكذا قررت أن أحتفظ لنفسي بسر عدم القدرة على الإنجاب. ولم يكن أحد يعلم بسري سوى شريكي. أما بالنسبة للآخرين فكان الأمر يبدو بأنني لم أنجب بعد. لكن هذه العلاقة انفكت ولم تكن الرغبة في الإنجاب هي السبب. فبعد وقت قصير عثرت على حب جديد دون أن أخبر شريك حياتي الجديد بعد بالأمر، وكان قد طلق زوجته وله منها أطفال، ولم أطرح الموضوع أبداً.

لم يكن سري يشكل عبئاً عليّ، فهو ليس حاضر دائماً. وقلما كنت أقف وجهاً لوجه معه. وفي المرة الأخيرة عندما حملت اثنتان من صديقاتي

قال لي: «الآن حان دورك». فبقيت عند رأيي ولم أفصح بسري. طبعاً كنت أنزعج عندما يصف الناس من لا أطفال عندهم بالأنانية. أما رجال السياسة فيجدون فيهم دافع ضرائب جيد. أخيراً هناك الكثير من الناس الذين لا أطفال لهم بالرغم من إرادتهم. ولكن بالرغم من ذلك لن أضع نفسي في مواجهة خطر إفشاء سري.

لم أفعل ذلك حتى في حالات يمكن أن تكون في صالحي. فعند التقدم لمسابقة توظيف كان السؤال المطروح دائماً هو: «هل تريدين أطفالاً؟» وبالرغم من أنه كان في صالحي أن أجيب فوراً «لا يمكنني الإنجاب» إلا أنني صمتت. فقد خفت أن يُفهم من الكشف عن سري بأنه إقرار بالضعف. سري لا يلحق أذى بأحد فهو شأن يخصني وحدي. إنه يعتمل في جوفي دائماً ولا يعذبني. إن كوني عاقراً هو جرح مندمل. وسعادتي غير معلقة بالأطفال، فقد عثرت على طرق أخرى. وبالرغم من أنني لا أرى في عدم الإنجاب عيباً، إلا أنني أفضل عدم البوح بسري. إنه يوفر لي الوقاية من التقويم الاجتماعي، أو الحط من قيمتي الاجتماعية. فأنا مقتنعة بأنني على درجة لا بأس بها من الذكاء تضمن لي فعل ما أراه صحيحاً.

ذات منفتحة وذات خاصة:

لا بد من الفصل بين الجو الخاص والحياة العامة. وعلينا أن نكون قادرين على أن نقرر ما هو الشيء الذي نعلنه من حياتنا الخاصة، وذلك الذي نحتفظ به لأنفسنا. وإذا ما سمحنا -عن وعي- بشيء من الاطلاع على ما يخصنا، فليكن ذلك متاحاً فقط لأشخاص مختارين عرفناهم وصنفناهم بأنهم أهل للثقة. وفي الوقت نفسه نقفل أبواب البيت والقلب

ونعلنها بصراحة «قف»! أمام الذين نريد أن نقيم بينهم وبيننا حدوداً، أو أقاموا هم مثل هذه الحدود. عبر رسم مثل هذه الحدود نقرر متى، وقبل كل شيء لمن نظهر وجهنا الخاص، ولمن نظهر بشخصيتنا الحقيقية، والدور الذي نؤديه في الحياة العامة.

في كتابه تحت عنوان «كلنا نمثّل» يطرح عالم الاجتماع ارفينغ غوفمان Erving Goffman فكرة أننا جميعاً ممثلون على نحو أو بآخر، ولكل منا دور محدد لا يُظهر إلا جانباً واحداً منا. في دورنا المهني نقدم أنفسنا «بقناع» آخر يختلف عن دورنا بوصفنا أمهات وآباء، أو في وظيفتنا بوصفنا شريكة في الحب أو صديقة أو زميل في ممارسة الرياضة أو أخ. الأمر الذي لا يعني أن لا نتظاهر على نحو مختلف كلياً في العلن وأن نخفي ذاتنا دائماً وأبداً إخفاءً تاماً. بالنسبة لـ «غوفمان» فإن الذات المعلنة ما هي إلا نوع آخر من الحقيقة: «إلى حد ما ومن هذه الناحية يمثل هذا القناع الصورة التي وضعناها لأنفسنا -الدور الذي نصبو إلى أدائه- قناع ذاتنا الحقيقة التي نريد أن نكونها، أخيراً يتحول تصورنا للدور إلى طبيعة ثانية، وإلى جزء تكاملي من شخصيتنا».

لكن إلى جانب هذه الحقيقة المعلنة هناك أيضاً حقيقة أخرى، الحقيقة الخاصة، الحميمة والشخصية، التي مالا يسمح لها عادة بالتسرب نحو الخارج، ولا نصرح بها غالباً للناس الذين يقاسموننا الجو العام الذي نعيش فيه. هذه الحقيقة لا تتناسب مع الصورة التي يعرفها الناس عنا، التي يريدون الاستمرار في معرفتها. هذه الحقيقة تخصنا وحدنا فقط وليس أي إنسان آخر.

obeikan.com

وكان عالم الاجتماع زيمل Simmel على قناعة بأن هناك «ملكية روحية خاصة» التي يعني اغتصابها إضراراً بالأنا في الصميم. ويرى زيمل في الكتمان احتراماً «للجو المثالي» للإنسان «أمراً لا بد منه».

الأسرار تحافظ على ما نكنّه في أعماقنا:

في المعابد اليونانية كانت هناك حجرة داخلية يطلقون عليها اسم (ناووس) تحفظ فيها صورة الألوهية، مسخر لها المعبد الموجودة فيه. على سبيل المثال: الربة هيرا أو الإله بوزايدون. كانت هذه الحجرة محاطة بجدران وأعمدة. تفصل ممر الأعمدة المسقوف الذي يحيط بالمعبد عن «البروناووس» أي صالة المدخل الأمامية التابعة للحجرة. وهناك جدار فيه باب يفصل بدوره بين البروناووس والناووس. كانت الحجرة هي المسكن الخاص للآلهة ولا يسمح إلا للكهنة بالولوج إلى داخلها. كانت احتفالات الأضاحي والمواكب الدينية تقام كلها أمام المعبد.

أما الحجرة فكانت تلفها الظلمة الأسطورية، ولا يدخلها النور إلا لوقت قصير عندما يسمح للكهنة أو المقدسين الآخرين بدخولها لممارسة أعمال طقسية.

يمكن أن تكون المعابد اليونانية التي بني أقدم واحد منها نحو عام 500 قبل الميلاد (مثل المعابد الثلاثة التي ما تزال معالمها ماثلة للعيان في Paestum في جنوب إيطالية) صورة لشخصيتنا.

لدينا نحن أيضاً -مثل هذه المعابد- حجرة داخلية لا يسمح بولوجها إلا لنخبة مختارة، لا يعرف أحد غيرهم كيف تبدو وما هي تجهيزاتها.

وأحياناً أيضاً قد لا نسمح حتى لهذه الفئة المختارة بدخول هذه الحجرة. إنها (الجوهر) النواة التي تصنعنا وتمنحنا الهوية. وذاتنا هي إلى حد ما مقدسة تماماً كصورة الآلهة اليونانيين. مثلها يجب أن نحفظ نواتنا من نظرات من لا يجب أن ينظروا إلى ما بداخلها. أما ذلك الذي لا نرى غضاضة من إخراجه إلى العلن فمكانه هو ممرات الأعمدة، لكنه لا يشكل الشيء الذي يصنع شخصيتنا. ومن لا يعرف إلا صورتنا الخارجية ولا يتجول إلا في ممرات أعمدتنا، لا يدري حقاً ما الصورة التي نحن عليها في قرارة أنفسنا.

للحفاظ على كرامتنا وعلى تفردنا وهويتنا نحتاج نحن أيضاً - كالمعابد اليونانية - إلى منطقة حماية نجعل الوصول إليها يخضع لرقابة صارمة. هنا يحفظ كل شيء يخصنا والذي لا يشترط أن يطّلع عليه الآخرون، مثل الخبرات والمشاعر التي لا نريد أن نشارك أحداً فيها. ويدخل في عداد ذلك أيضاً أحزاننا ومخاوفنا ومتاعبنا التي لا نريد أن يشاركنا فيها أحد. هكذا على نحو عفوي، وكما نحافظ على ملكيتنا المادية من اللصوص، كذلك -وبنفس البداهة- علينا أن نحفظ أيضاً ملكيتنا التي نختزنها في أعماقنا التي تشكل هويتنا.

هيلغا مثلاً استخدمت حقها -بالرغم من معارضة زوجها- في الاحتفاظ بالكثير من أفكارها ومشاعرها لنفسها دون أن يطلع عليها أحد. ولم تثق بأحد سوى بدفتر مذكراتها. وعندما أصيبت بمرض خطير أرادت أن تؤمن الحماية لملكيتها الخاصة، فكتبت رداً على إعلاننا (البحث عن أسرار) الرسالة الآتية:

×

مثال: عمري 62 سنة وأنا قادرة على العيش مع الأسرار وتصعب عليّ الصراحة المطلقة؛ لأنه ليس من الأمر البديهي أن أبوح بشيء يتعلق بها. منذ طفولتي وأنا لا أفشي بالكثير عني، إما خوفاً من التأنيب وعدم التفهم والعتاب، أو خوفاً من عدم تقبل الناس لي بأفكاري وتخيلاتي ومخاوفي السرية، خوفاً من الشعور غير المحدد بأنه يمكن أن أبدو صعبة، متمردة وجموحة. ألا أكون كما أشعر في قرارة نفسي.

وبما أنني منذ الطفولة وأنا أستسلم لهذا الشعور، فقد بقي معي هذا الشعور إلى مرحلة البلوغ. فمنذ أن كنت في الرابعة عشرة أكتب مذكراتي التي لا أستودعها أيضاً كل شيء. وعندما يراني زوجي أكتب يريد أن يقنعني أن أقرأ له شيئاً مما أكتبه، ولكن رفضي ذلك أدى بنا أحياناً إلى نقاشات حامية. فأنا أعلم أنه يتوق لمعرفة ما أكتبه.

في كانون الثاني الماضي كنت أستعد لإجراء عملية جراحية لاستئصال ورم سرطاني خبيث. وتوقعت أسوأ الاحتمالات، وهو بأنني لن أعود منها إلى بيتي، فقررت أن أتخلص من مذكراتي المتعلقة بالفترة ما بين عامي 1994 و2000، من سنوات زواجنا التي كانت صعبة. ونظرت من النافذة كيف اندلقت حاوية القمامة في شارعنا إلى جوف سيارة القمامة ومن بينها المذكرات المتعلقة بالسنوات تلك. لقد قمت بهذا العمل سراً، لكن والحمد لله عدت إلى بيتي بعد العملية سالمة معافاة. وقبل مدة عاد الحديث مرة أخرى حول كتابة المذكرات. فكشفت له بأن أسراري قد غابت قبل عام في حاوية القمامة. كان رد الفعل -وكما توقعت- غضب وعدم تفهم لماذا تخلصت من مذكرات ست سنوات. وبدا لي بأن قراءتها

ثانية لن تكون مجدية فيما لو كانت موجودة. ولا أحد يجب أن يطلع على حقيقة صراعاتي وأحاسيسي.

عمري الآن 62 عاماً. وفي يوم ما سوف لن يكون بوسعي أن أقرر ما الذي سيتحدث لمذكراتي. وفيما إذا كنت شيئاً فشيئاً سأرسل بكل مذكراتي، وبصمت، إلى المصير نفسه.

لماذا يفضل الحفاظ على الحجرة الداخلية من فضول الآخرين؟ يرى أستاذ علم النفس في جامعة هارفارد البروفيسور دانييل فيغنر Daniel Wegner بأن كل إنسان بحاجة إلى أسرار من أجل استقراره النفسي، «ليس لدى المرء «ذات» خاصة طالما أن لا أسرار لديه». ونحن جميعاً نعرف لحظات في حياتنا نشعر أثناءها بأننا نفقد أنفسنا في مجموعة مجتمعية في مجال العمل أو الزواج.

في حالات كهذه يفضل أن يحتفظ المرء بسر ليؤكد استقلاليته وتفرده. فالأسرار هي التي تجعل من المرء فرداً متميزاً. وعدم وجود الأسرار يعني بأن المرء يتكيف كلياً مع الآخرين ويسلك حسب توقعاتهم، وهو مكشوف لهم في منتهى الشفافية. وعدم وجود أسرار يعني فقدان القدرة. وإذا ما لبينا طلب إنسان آخر بقوله: «يجب أن لا تكتم أسرارك عني» فإننا نعطيه بذلك القوة ليتحكم بنا. فإذا ما أراد أحدنا أن يقرر حياته بنفسه فإنه بحاجة إلى كتمان السر.

أسرار الأسرة:

ينطبق الحفاظ على الجو الخاص للإنسان أيضاً -وبالضبط- على الأسرة؛ لأن الحياة المشتركة لأجيال مختلفة لن تسير سيراً جيداً من دون

obeikan.com

حفظ الأسرار. ولذلك يرى المحلل النفسي الفرنسي سيرج تيسيرون بأن الأسرار داخل النظام الأسري هي شيء عادي جداً. «لكل شخص أسراره ولكل أسرة أسرارها دون أن يكون هناك بالضرورة شيء مبهم؛ لأن أولئك الذين يحتفظون لأنفسهم بمعلومات معينة لا يشعرون البتة بالانقسام فيما يخص مضمون هذه الأسرار. فعلى سبيل المثال لا يقلق الأهل البتة السؤال فيما إذا كان يجب عليهم إطلاع أطفالهم على كل شيء عن حياتهم الجنسية». فأسرار مثل هذه تظهر للطفل أن هناك مجالات لا تخص سوى الأهل، مثل مشكلات الأب في المعمل الذي يعمل فيه، وخيبة الأم من الأب، أو مصاعب مالية. كل ذلك لم يخلق ليكشف على مسامع الأبناء. والشيء نفسه ينطبق على الطقوس الحميمة للزوجين. وكذلك الأحداث الأسرية المريرة مثل مسألة انتحار العمة أو الخالة، أو بنت العم أو الخال التي هربت مع البحار. كلها يجب أن تبقى أسراراً بالنسبة للأطفال إلى أن يبلغوا من العمر مرحلة يفهمون فيها مثل هذه الأشياء. أخيراً ليس من الضروري أن يعلم الأطفال كيف ينظر الأهل إليهم.

ويتحدث المختص في علاج العلاقات الأسرية آرنولد ريتسر Arnold Retzer عن المقاومة الصحية لابنه ديفيد الذي لم يرغب في سماع ما يفكر به أهله عنه. وشكا على نحو فطري عن حقه في عدم المعرفة بقوله «ألا يمكنكما أن تتصرفا كما يتصرف الأهل العاديون وتتحدثان عني من وراء ظهري؟».

تضع الأسرار الأسرية حواجز مفيدة بين الأجيال، وترسم حدوداً واقية بين عالم الأسرة والعالم الخارجي. ومن دون أسرار -كما يرى ريتسر- ربما

obeikan.com

لم تكن هناك أسرة على النحو الحالي البتة. فالسر يسهم على بقاء الفرد وعلى علاقات الحب والأسر. وهذا مالا يمكن التركيز عليه بالوضوح الكافي لأن «السر يدعو إلى علاقة قوية يستثنى منها الآخرون». وعبر السر بقوى تماسك الزوجين أو الأسرة: نحن في مواجهة بقية العالم! والأسرار تخلق الأمن والانتماء أيضاً حسب درجة السر. والتأكيد المتبادل بالقول «هذا من شأننا نحن فقط، ولا لزوم لاطلاع الآخرين عليه» يزيد من قوة الرابطة.

تساعد الأسرار على تماسك الأسرة وعلى البقاء الصحي لأفرادها ضمن الرابطة الأسرية. إنها تضمن حدود الأفراد، لأنها تحافظ على جوهم الخاص.

لماذا نحتاج إلى أسرار للحفاظ على الجو الخاص؟

كل إنسان بحاجة إلى غرفة سرية لا يجوز لأحد، مهما كان موقعه أو بعده أو قربه، ان يلقي نظرة عليها. هذه الحجرة هي جونا الخاص. ولا يمكن ضمان الحفاظ عليها إلا بمساعدة الأسرار. فالأسرار تساعدنا على تحقيق استقلاليتنا وتفردنا وتساعدنا على عدم التماهي الكلي في مجموعة أو في الأسرة أو في شراكة.

5- الأسرار تخدم الحب:

عندما يتحاب رجل وامرأة فإنهما يتعاهدان غالباً على الإخلاص الأبدي والصراحة المطلقة، وأن أي منهما لن يخفي عن الآخر شيئاً، وأن

openkarn.com

لا تكون بينهما أسرار. فالإخلاص التام هو شرط حتمي إذا ما أريد للحب أن يدوم.

هكذا يعتقد أكثر الناس. لكن هذا الاعتقاد ويا للأسف ينضوي على خطأ قد يكون المسؤول عن حالات غير قليلة من الانفصال؛ لأن الصراحة المطلقة ليست السر في العلاقات السعيدة، بل قد تكون في حالات معينة مسماراً في نعش هذه العلاقات. فالحب يحتاج إلى الكذب.

من المفهوم أن يقف شعر البعض عند سماع مثل هذه الأقوال. فمن ذا الذي يقبل أن يكذب عليه الحبيب؟ ومن لا يقلق عندما يفترض أن اقرب إنسان إليه يخفي عنه أشياء؟ ومع ذلك فإن الأسرار تعدّ شرطاً أساسياً للحب الذي ينبغي أن يكون أبدياً.

هذه الرسالة تؤكدها أسطورتان يجب أن تدفع نهايتهما البائسة كل المحبين إلى التفكير ملياً في الأمر، وهما حكاية «ميلوزين» وأسطورة لونغرين.

لقد أخفق أمير لوزينان وإلزا ابنة أمير مقاطعتي برابانت وليمبورغ في ترك أي مساحة في حياتهما للأسرار بينهما. كانت نتيجة ذلك أن دفعا ثمناً باهظاً لقاء هذه الصراحة التامة. تجسس الأمير على زوجته ميلوزين فيما بعد وإلزا أمطرت زوجها لونغرين بأسئلة محرجة. ففقد الاثنان سعادتهما في الحياة.

أسطورة ميلوزين: عاش أمير لوزينان وحيداً في قصره في منطقة بواتو الفرنسية. وذلت يوم وقع في حب فتاة رائعة الجمال اسمها ميلوزين. واتخذ

قراره: هي أو لا أحد، لأن من لها مثل هذا الجمال يجب أن تكون زوجته. وكانت ميلوزين موافقة، لكنها أرفقت موافقتها بشرط أن لا يحاول الأمير يوماً النظر إليها وهي تستحم. ولم يكن من الصعب على الأمير العاشق أن يعدها بتنفيذ هذا الشرط، وهكذا تم زواجهما.

عاش الزوجان سنوات عديدة معاً في غاية السعادة، ورزقا بأربعة أطفال على قدر من الحكمة لكن لهم بعض الملامح غير العادية، أسنان كبيرة وعيون تشع على نحو غير عادي. ومع مرور الزمن رأى الأمير أنه من غير المعقول أن لا يُسمح له أبداً بالنظر إلى زوجته أثناء استحمامها. فخالجته الشكوك وتساءل بينه وبين نفسه ماذا تخفي عني يا ترى؟

ذات مرة لم يعد قادراً على كبح جماح فضوله. وعلم من إحدى الخادمات الغيورات موعد استحمام زوجته فتسلل إلى هناك. فرأى ما جعله يحبس أنفاسه. رأى أن زوجته قد تحولت أثناء الاستحمام إلى تنين فأطلق صرخة. فخافت ميلوزين وهي في هيئة التنين وعندما رأت زوجها اختفت من القصر إلى الأبد. ومنذ ذلك الوقت ساد النحس في مقاطعة لوزينان. وروى الفلاحون هناك بأن في كل مرة يموت فيها فرد من أفراد أسرة ميلوزين يرون تنيناً يطير فوق القصر ويذرف الدموع بمرارة.

أسطورة لونغرين: عندما مات أمير برابانت وليمبورغ لم يخلف سوى ابنته إلزا وريثة وحيدة. وبما أنه لم يرد أن يتركها وحيدة مع عبء المسؤولية فقد أخذ وعداً من الأمير تلراموند بأن يساعد إلزا في إنجاز مهامها باعتبارها الأميرة القادمة، فأعطاه تلراموند كلمة وعد.

وبعد موت الأمير لم يقدم تلراموند الطاعة للأميرة إلزا، وبدلاً من ذلك ادعى بأن الأمير الراحل قد وعده بأن تكون إلزا زوجة له، مما جعلها تلجأ في محنتها إلى القيصر هاينريش طلباً لمساعدته. لكنه وجد نفسه عاجزاً عن اتخاذ القرار المناسب.

بالنهاية لم يكن هناك شهود على الحديث الذي جرى بين الأمير الراحل وتلراموند فحسمت الأمر محكمة إلهية؛ إذ عثرت إلزا على فارس يتبنى قضيتها في الصراع مع تلراموند. وعندما انتشر النداء: «إن كان هناك من هو مستعد للدفاع عن قضية الأميرة إلزا، عليه المثول بين يدي القيصر» لم يتحرك أحد.

لكن قارباً ظهر يتقدم في النهر وفيه يقف فارس منتصب بكامل سلاحه البراق، والشيء الذي أدهش الجميع على نحو خاص هو أن القارب لم يكن يسير بقوة دفع شراع أو مجداف بل كانت تجره بجعة فضية تتلألأ بنور الشمس. وبخطا خفيفة قفز الغريب إلى ضفة النهر وأمر البجعة أن تعود من حيث أتت قائلاً لها «عودي الآن إلى موطنك، إلى فضائك الرحب» ثم تقدم واثق الخطوة من إلزا قائلاً: «أنا لونغرين» وطلب منها راجياً أن يُسمح له الدفاع عن قضيتها في مواجهة تلراموند. طبعاً أعطته موافقتها وطبعاً انتصر فارس البجعة وأصبحت إلزا الشاكرة له زوجته.

أقيم حفل الزفاف بحضور القيصر. وقبل أن يأخذ لونغرين زوجته الحسناء إلى بيته أخبرها عن عهد ارتبط به عبر أمر من جمعية الفرسان التي ينتمي إليها قائلاً لها ومحذراً: «عليك أن لا تسأليني يوماً عن أصلي ومن أين أتيت، أبداً على الإطلاق، فإن نقضت هذا العهد

تفقديني للأبد». وافقت إلزا على ذلك وعاشا بسعادة مع أطفالهما. لكن مع الأيام وجدت إلزا أنه من غير الطبيعي أن لا تعلم شيئاً عن أصل لونغرين. وزاد من شكوكها ما يتردد في أوساط البلاط من القيل والقال فلم تجد بداً من سؤاله قائلة بكل حذر: «زوجي الحبيب، أليس من واجب المحبين أن يظهروا الثقة المتبادلة بينهم؟» فأدرك لونغرين في الحال الهدف من سؤالها، فنظر إليها محذراً وقال: «أنا الذي يجب أن يوجه إليك مثل هذا السؤال يا إلزا». ولم تشأ أن تفهم ما يرمي إليه اتهامه المحذر لها فقالت: «أما ينبغي لنا أن نخبر أطفالنا عن أصل والديهما؟» فصرخ لونغرين متوسلاً: «إلزا، إنك تتلاعبين بسعادتنا الزوجية. إلزا، توقفي!» لكنها لم تتراجع وقالت: «إن كنت تحبني حقاً قل لي من أين أتيت وما هو أصلك؟».

نظر إلى زوجته -التي طالما أحبها- وعلى وجهه شحوب الموت قائلاً: «الآن انتهت سعادتنا الزوجية، فالكلمة المشؤومة قد نُطقت، انظري إلى هناك». فنظرت باتجاه يده الممدودة لترى البجعة قادمة بهدوء واتزان مع القارب الذي ساق إليها يوماً حبيبها. فصرخت: «إنها البجعة» ثم انهارت أرضاً. فقال لونغرين: «نعم، إنها البجعة، ولم يعد مكوثي هنا طويلاً». وتوجه إليها بكل الحب قائلاً بصوت ثابت: «قبل أن أنطلق عليك أن تعلمي ما الذي تلحين على معرفته، وهو أصلي ومن أنا» ثم كشف لها سره قائلاً: «والدي هو Parzival حامي حمى الخيرات المقدسة وسيد أخوية حديد المعبد وأنا من أتباع هذه الأخوية. واجبنا -حسب نظام أخويتنا- أن نقف إلى جانب الأشراف من الناس في أزمات ضيقهم، كما فعلت بالنسبة لك»

ومن ضفة النهر سُمع نداء البجعة فقال لونغرين: «إنني قادم». ولم يره أحد بعد ذلك.

إذن ميلوزين ولونغرين. لقد أخفى كل منهما سراً عن حبيبه، سراً أعلن عنه سلفاً أنه سر؛ لأن الأمير وكذلك إلزا كانا يعلمان أن هناك شيئاً ما لا يمكن للآخر أن يفصح عنه في أي حال من الأحوال. وكان شرط أساسي من شروط سعادتهما الزوجية هو عدم البوح للشريك بالسر. وكلاهما فعل نتيجة الفضول. كلاهما لم يستطع أن يتحمل أن يكون من حق الآخر أن يحتفظ بشيء ما لنفسه فقط، لا يجوز لأي شخص آخر الاطلاع عليه. لقد دفع الأمير، كما دفعت إلزا، ثمناً باهظاً لقاء هذا الفضول، ففقدا بذلك حبيب العمر.

أما في ظل العلاقات السائدة الآن فالأمر ليس بهذا الخيال وهذه الأساطير. فلم يعد هناك تنين مسحور، ولم يعد الفرسان يصولون ويجولون. لكن بالرغم من ذلك يمكن لنا نحن الناس العاديين أن نستخلص عبرة مهمة من هذه الحكايات: على الزوجين أن لا يعرف أحدهما كل شيء عن الآخر، بل على كل منهما أن يبقى إلى حد ما سراً تجاه الآخر.

قد يكون وقع هذا الكلام غريباً على آذان الكثيرين الذين طالما سمعوا أثناء العقود الماضية من مختلف الجهات، من علماء النفس ومن الكتب ومقالات الصحف بأن الصراحة المطلقة هي أساس العلاقة الناجحة. فالأسرار، كما يقال هناك، غير مفيدة على الإطلاق خاصة بين الشريكين. وهذا الرأي هو أيضاً جديد نسبياً. ففي الأزمنة القديمة لم يكن هناك إلزام بالصراحة بين الشريكين.

فلم تعلو المطالبة بالصراحة غير المحدودة في العلاقة بين اثنين إلا أثناء العقود الأخيرة كما يقول عالم الاجتماع والنفس كارل لينتس في بحثه في المراجع المتعلقة بالنصائح. وفي نصائح خمسينيات القرن العشرين كان من البديهي أن لا يجب على الشريكين أن يعرف كل منهما كل شيء عن الآخر. واقتبس لينتس عن كتاب «حب من دون ندم» الذي أعطى فيه مؤلفه أرنست أرانوس عام 1959، لقارئاته النصيحة الآتية: «لا تطلعي زوجك البتة على أفكارك ومشاعرك، لا تكثري من اللغو وقومي بصياغة ما تقولينه بحذر لا يفتقر إلى الذكاء».

أما الباحثة سوزان باجه Susan Page فتقول في كتاب لها صدر عام 2000 «تتطلب الحميمية أن يكون كل منكما منفتحاً على الآخر وصريحاً معه. الحميمية هي الخبرة في الكشف عن الخصائص الأساسية الظاهرية المخصصة للرأي العام ثم تقاسم الحياة الداخلية الخاصة مع شخص آخر. وحسب هذا التعريف يمكنك أن لا تبوح كلياً بما يعتمل في داخلك، وبذلك يكون سلوكك نصف حميمي، لكنك لن تعيش حياة حميمة خالصة».

الصراحة بلا حدود ليست ضمانة للعلاقة السعيدة:

بناء على مثل هذه النصائح يوفر كل من الحبيبين نظرات لا حدود لها إلى حياة الآخر، آملين من ذلك أن يعيشا حياة حميمة خالصة. ثم يدهشان بعد ذلك ويشكان عندما لا ينشأ -بالرغم من كل هذه الجهود- تآلف حقيقي يجمعهم. بل ينشأ العكس تماماً. فكلما ازدادت معرفة أحدهما بالآخر، وكانت هذه المعرفة أكثر دقة، ضعفت قوة الجاذبية إلى الآخر. وقد سبق أن حذر عالم الاجتماع جورج سيمل من أن الطموح إلى

الصراحة التامة في علاقة شراكة وإلى التوافق في جميع مجالات الحياة يمكن أن يكون خطيراً؛ إذ يمكن أن يؤدي «إلى أن يقف المرء يوماً ما بأيدٍ خاوية» أي لا شيء عنده. وخمّن «سيمل» أن كثيراً من الزيجات تفشل بسبب عدم وجود الكتمان المتبادل بين الزوجين.

«ما يمكن أن نراه واضحاً حتى في أعمق الأعماق، يكشف لنا من ثمّ عن حدود الإثارة ويحول دون نسج الخيال. وبفقدان ذلك لا يمكن لحقيقة أخرى أن تعوض شيئاً». كما يؤكد عالم الاجتماع هذا، ويضيف: بأن عدم وجود الكتمان المتبادل يؤدي إلى فشل الكثير من الزيجات نظراً لعدم وجود مجال للمفاجآت.

«تنتهي متعة الحب عندما يفقد سره» هكذا قال حكيم في القرن السابع عشر. وقد أكدت ذلك المختصة في معالجة شؤون الأسرة الباحثة إيفان أمبر بلاك في عملها مع الأزواج، فقد لاحظت وجود «بعض الانزعاج البسيط» عندما يصرح الزوجان بأن حياتهما تخلو من الأسرار.

«عدم وجود أسرار يعني عدم وجود حدود، عدم وجود الذات المستقلة، عدم وجود وسائل خاصة أو دفتر مذكرات، عدم وجود مجال للأحلام الشخصية. لا شيء غامضاً. وعندما تدخل الأنا في الأنا ليشكلا «نحن» تختفي السعادة في وجود الفروق، والزوجان اللذان لا أسرار بينهما غالباً ما يطلبان تلقي العلاج؛ لأن علاقتهما أصبحت مملة وكئيبة».

وهذا ما ينطبق من ثم غالباً على الحياة الجنسية. ففي هذا المجال أيضاً يبدو أن القرب الزائد وندرة البعد يؤثران سلباً على نوعية العلاقة

obeikan.com

الجنسية. فالشريكان يفقدان مع مرور الزمن الجاذبية المتبادلة، وتخلي الرغبة، التي كانت في البدء، مكانها لعدم الرغبة المتزايد. وقد اتفق المختصون في معالجة قضايا الجنس، مثل أولريش كليمنت على سبيل المثال، بأن الألفة المفرطة تطرد الشهوة مع مرور الوقت. «طالما أن الإرضاء غير مؤكد وطالما أن الشريكين لم يتملكا بعد بعضهما بعضاً، وطالما أن سياق اللقاءات الجنسية هو مغامرة، تبقى الرغبة الجنسية أقوى». ويضيف كليمنت: «حالما كان الإشباع موثوقاً وحالما أن هناك ضمان لهذا الإشباع فغالباً ما تقل الشهوة. فالكثير من التحقق يبدو أنه يعيق الرغبة الجنسية». عندما يخلو الآخر من أي سر أو غموض، وعندما يظن المرء أنه قد بات يعرف الآخر من كل النواحي، حتى من الناحية الجنسية، عندها يسيطر الملل والفتور. وفي حالات ليست بالنادرة يحاول الشريك أن يدخل شيئاً من السرية إلى حياته بإقامة علاقة خارجية لكي يتخلص من الجو الخانق الذي خلقته الصراحة التامة. وتعتقد المختصة في معالجة المشكلات الزوجية روزماري فلتر- اندرلين «بأن العلاقات التي تقام بالسر هي رد فعل على المطالبة الدائمة بالكشف عن كل شيء. لقد غدت الأسرار والزوايا وسيلة رئيسة من وسائل خلق الشعور بالوجود الذاتي» ففي العلاقات السرية التي تقام خارج نطاق الزوجية يبحث المرء عن «مجال خاص فيه» يشكل حاجزاً بينه وبين الشريكة التي تعرف كل شيء، أو تجاه الشريك الذي يبالغ في الألفة. «فالنزوع إلى التآلف يقضي عليه الوزن الثقيل الذي يقع على التوافق والجو الرتيب» ولذلك يحاول البعض إيجاد زوايا سرية خاصة. على غرار ما فعل هلموت (45 عاماً) عندما هرب إلى ركنه الخاص:

مثال: عشت سنين طويلة كالفأر يدور مع عجلة تدور. أقضي كل وقتي موزعاً بين العمل وواجباتي الأسرية فلم يبق لي أي مجال لنفسي. كانت زوجتي تعرف تفاصيل كل دقيقة من وقتي، أين أنا وماذا أفعل، إنها متسلطة جداً وكانت تقول لي دائماً ماذا يجب عليّ أن أفعل أو أترك. حتى عندما أغفو وأنا منهك مساء أمام شاشة التلفاز كانت توقظني وتعطيني تعليماتها. أخيراً تعرَّفت ذات يوم في مكان عملي سيدةً شابةً عمرها 21 عاماً. كانت تختلف كل الاختلاف عن زوجتي. كان باستطاعتي أن أتحدث معها عن كل شيء. وكانت قبل كل شيء تشاركني اهتماماتي التي كانت ما تزال كالأرض البوار. أعترف أنني أحببت هذه السيدة إلى حد ما. لكن لم أشأ أن أبدأ معها بعلاقة ما لأنها يمكن من حيث السن أن تكون ابنتي. ألتقي بها كثيراً، خاصة عند استراحة الغداء ويرسل كل منا للآخر رسائل قصيرة SMS. أحياناً نتمكن من زيارة أحد المتاحف معاً، وأنا أتمتع بهذه الساعات المسروقة. لقد أصبحت هذه السيدة جزءاً مهماً من حياتي. ومنذ أن تعرّفتها أصبحت في حالة أفضل. حتى الآلام التي أعانيها في الظهر منذ مدة طويلة قد اختفت تماماً.

الأسرار تخلق مجالات لحرية الحركة:

ليست العلاقات الخارجية السرية –مهما كان نوعها– الطريق الأفضل مع مرور الوقت لوقاية «الأنا» مقابل الـ «نحن» التي زادت قوتها عن الحد. من الأفضل والأقل خطورة على العلاقة هو أن يعترف كل واحد للآخر منذ البداية بمجال حر لا يمكن للآخر الولوج إلى داخله. وقد أظهر عالم النفس كورت لنفين، عبر بحث أجراه على مجموعات، مدى أهمية

هذا «الحيز الخاص بالحركة الحرة» على الفرد بقوله: «إن الانتماء إلى مجموعة معينة لا يعني أن يتفق الفرد بالضرورة في كل النواحي مع أهداف وقرارات ونمط حياة وتفكير المجموعة. فإلى درجة معينة لكل فرد أهدافه الشخصية. ومن أجل ابتغاء هذه الأهداف الشخصية وإشباع حاجاته الفردية يحتاج الفرد إلى حيّز كاف من الحركة داخل المجموعة. ويمكن صياغة مشكلة التكيف مع المجموعة وتحقيق الحياة الناجحة ضمنها من وجهة نظر الفرد بالأسلوب الآتي: كيف يمكن للفرد إشباع حاجاته الشخصية على نحو كاف دون أن يفقد عضويته ومنزلته في المجموعة؟ فإن كان حيز حرية حركته داخل المجموعة ضيقاً جداً، أو بعبارة أخرى، إن كانت استقلاليته عن المجموعة منقوصة، فلن يحقق السعادة، وسوف يدفعه عدم تحقيق رغباته إلى التخلي عن المجموعة، أو حتى إلى تدميرها في حال كانت تحد من حركية حرية أعضائها». أيضاً في حالات الزواج أو الشراكة يتعلق الأمر أيضاً بمجموعة، وهنا يكون الأمر في مثل هذه الحالات صعباً على نحو خاص؛ إذ لابد من وجود مجال خاص وكاف لكل عضو في الجماعة.

والرغبة عند الشخص بمعرفة كل شيء عن الآخر تعد أمراً مفهوماً، خاصة في بداية العلاقة، حيث يكون الإلحاح كبيراً على الانفتاح التام على الآخر إلى حد التماهي فيه. لكن بالرغم من كل الحب يجب على الشريكين أيضاً في بداية حبهما الإبقاء على نحو فطري على مجالات معينة من حياتهما مقفلة انطلاقاً من وقاية الذات والرغبة في رسم حدود معينة. وكلما استمرت الشراكة أصبح التوازن بين المعرفة وعدمها أكثر ضرورة.

ومن الطبيعي أن تكون للأسرار داخل علاقة شراكة آثار هدامة تُلحق أضراراً، مثلاً:عندما يخفي أحد الشريكين خياناته الزوجية المتكررة، أو إدمانه الكحول، أو ديونه وما شابه ذلك، عن الآخر، فمثل هذه الأسرار السوداء لا تدخل في نطاق الحديث عن مجالات ضرورية من أجل حرية الحركة. المقصود هنا بالدرجة الأولى الأسرار التي تحدد المجال الخاص داخل العلاقة. مثل الأفكار والذكريات والأشياء التي ليس من الضرورة أن يطلع عليها الآخر.

في هذا الصد يذكر عالم الاجتماع ارفينغ غوفمان «في حالات الزواج الناجحة يمكن للمرء أن يتوقع أن يحتفظ كل شريك بأسراره المتعلقة بالقضايا المالية، والعلاقات السابقة، والمغازلات الحالية والعادات السيئة والآراء الحقيقية المتعلقة بالأقارب أو الأصدقاء المشتركين».

إن كل من يتحدث إلى الشريك بقلب مفتوح بأن علاقة حب مر بها سابقاً كانت في غاية السعادة من الناحية الجنسية، أو يكتم عن الشريك بأنه لا يستطيع أن يطيق والدته، ومن لا بد له من الحديث عن الزميلة الجديدة بأنها مدهشة، فإنه لا يصنع بذلك معروفاً، لا بالنسبة له، ولا لعلاقته بالشريك.

أما مدى أهمية وجود أصغر الأسرار من أجل علاقة ناجحة فقد استطاعت الباحثة كريستيانه كرافت- ألسوب أن تثبته في بحث تطبيقي، فقد سألت 21 امرأة و19 رجلاً مضت على علاقتهم ما لا يقل عن سنة فيما إذا كانت هناك أشياء من الأفضل أن لا يطلع عليها الشريك/ الشريكة، إن

كانت هناك أمور يعرف الآخر بأنها موجودة لكن يفضل أن لا يتحدث عن أهميتها. كما أرادت الباحثة أن تعرف: «هل تظن/ تظنين أن هناك أموراً في بيتك لها أهميتها لشريكك/ لشريكتك ولا تريد/ تريدين معرفتها؟». أكثر من نصف من طرحت عليهم هذه الأسئلة يحفظ مثل هذه الأسرار ويتوقع أن يكون لدى الشريك سرٌّ. وبالنسبة «للأشياء» التي يجب أن لا يعرف عنها الآخر شيئاً فهي بالدرجة الأولى كتابات وأدراج مقفلة تعد من المحرمات على الآخر. وكذلك أيضاً بالنسبة لتماثيل أو صور أو لوحات مقترنة بسر ما لن يبوح بها للشريك بأي حال من الأحوال.

الدافع الأساسي للحفاظ على السر هو الرغبة بوجود مجال خاص لا يجوز للآخر أن يتسلل إليه، هكذا بررت إحدى السيدات الداخلات في الاستبيان عندما سئلت: لماذا تعد مذكراتها محرمة على شريكها؟ فأجابت: «هذا يخص شخصي فقط ولا يخص علاقتنا ويجب أن يبقى لي وحدي. وأنا أعده مجالاً لي وحدي لا يحق له الاطلاع عليه، وإذا ما اطلع عليه فإن ذلك يتم بإرادتي، عندما تراودني فكرة الحاجة باطلاعه عليه. وهذا شأن آخر». هناك دوافع أخرى تتعلق بالحفاظ على المشاعر، فما من أحد يريد أن يطلع الشريك على رسائل حب جاءت من حبيب سابق؛ لأنه يخجل من هذه العلاقة. أو أن المرء لا يريد تدمير الذكريات الجميلة عن أوقات ماضية عبر غيرة الطرف الآخر، كما تقول إحدى السيدات في الاستبيان: «فيها ذكريات جميلة عن أوقات مضت ولا أظن أن شريكي الحالي سيكون سعيداً بقراءة هذه الرسائل معي، ولا أعتقد بأنني سوف أطلعه على ذكرياتي». ورجل أراد أن يخفي رسائل صديقته السابقة عن شريكته الحالية لأنه لن يتخلص بعد من تبعات الانفصال عنها. «فإن

قرأت شريكتي الحالية هذه الرسائل فسوف تتولد لديها تساؤلات محرجة لي؛ لأن الأمر لم ينته بعد كلياً». بعضهم يخشى أيضاً أن يجرح شعور الشريك فيما لو علم حقيقة ماذا يعني له مثلاً هذا التمثال، أو قطعة الزينة أو اللوحة المعلقة على الجدار.

يمكن أن تكون الأسرار بين الشريكين «نسبية» أو «مطلقة» حسب قول السيدة كرافت- ألسوب «يكون السر نسبياً عندما يعلم الشريك مثلاً أن هناك دفتر مذكرات لكنه لا يبحث عنه البتة، فضلاً عن قراءته». إن وجدت هناك أسرار نسبية في حياة شريكين فإن ذلك يعني أن هذين الشريكين يتبادلان الثقة ويقران بوجود جو خاص لكل منهما. فقد ذكر أحد الرجال الذين شملهم الاستبيان «ليست هناك أدراج لا يمكنني الاطلاع على ما فيها، وكذلك ما من أدراج لا يمكنها الاطلاع عل ما فيها. من هنا يمكن نظرياً الاطلاع على كل شيء، الأمر الذي لا نفعله». وقالت إحدى السيدات: «أنطلق من فكرة بأنه يقرأ ما أكتبه. . . وأعتقد أنه يعلم مكان وجوده». أما السر المطلق فهو عندما لا يعلم الشريك البتة بوجود دفتر مذكرات أو صور أو رسائل حب، فهذه الأشياء مخبأة بعناية، أو محفوظة خارج البيت المشترك، في مكان العمل مثلاً. فوجود أسرار مطلقة هو دليل على أن في شراكة كهذه من غير المسموح وجود «مساحات لحرية الحركة». ومثل هذه العلاقات تتسم بعدم الثقة أكثر منه بالثقة. ومن يود أن يختبر الجو الخاص الذي يريده كل من الشريكين لنفسه عليه أن يفعل ذلك عبر أسئلة تطرحها المعالجة النفسية السيدة روزماري فلتر- أندرلين على الزوجين اللذين تعتقد بأنهما لا يملكان إلا حيزاً ضئيلاً لحرية الحركة:

سبعة أسئلة حول الجو الخاص:

1- هل لديك فرصة، عندما تعود من العمل إلى البيت، أن يكون لك وقت خاص بك قبل أن تسخر وقتك للأطفال أو لأعمال البيت؟ هل لديك إمكانية أخذ استراحة قبل أن تسخر نفسك للعمل المشترك؟

2- إذا ما أراد أحدكما شيئاً لنفسه، خاصاً له فقط، فهل لذلك مكان في علاقتكما أو في ظروف حياتكما؟

3- إذا ما أردت مثلاً أن تخفي دفتر مذكرات أو بعض الرسائل الخاصة، فهل لديك في البيت مكان لا يمكن لأحد الوصول إليه؟

4- عندما تريد اللجوء من الشريك إلى جوك الخاص. فكيف تفعل ذلك؟

5- كيف تتصرفان بخصوص الأمور المالية. هل لدى كل منهما المال الذي يمكن أن يصرفه دون أخذ موافقة الطرف الآخر؟ وهل يعرف أحدكما مقدار دخل الآخر؟ من الذي يقرر مقدار الصرف ولأي شيء يتم؟

وهناك سؤال وجهته السيدة روزماري للنساء خاصة:

6- هل يمكنك بين الحين والآخر أن تنسحبي من جو الأسرة إلى جوك الخاص دون أن تعدي قبل ذلك -وحدك- خطة للعناية بالأطفال وإعداد وجبات الطعام اللازمة؟

ومن الرجال أرادت أن تعرف:

7- هل هناك أوقات تنصرف فيها إلى متعتك الشخصية؟

الكذبة - شكل من أشكال الحب:

عدم وجود «الخاص» غير مفيد في تحسين العلاقة. حتى في علاقات الشراكة الأكثر حميمية يجب أن يكون هناك مجال للأفكار الخفية، للوقت الخاص بـ «الأنا»، لحياة سرية نشيطة. بذلك فقط يبقى المرء أكثر جاذبية بالنسبة للمحبوب. والشريكان الذكيان يعرفان ذلك ويصمتان. فهما يجعلان من الأفكار والتصرفات سراً عندما يعتقدان أن الآخر، إما لا يريد معرفتها البتة، أو أنه لا يحسن التعامل معها في حال معرفتها. ويؤكد المعالج في شؤون الأسرة والزواج السيد فرانك ناومان أهمية الأسرار بالنسبة للحب وينصح بضرورة التزام الصمت حيال الموضوعات الآتية:

- عند وجود رغبات لا يستطيع الآخر أن يقوم بتنفيذها.
- عند وجود مشكلات لا يستطيع أن يساعد على حلها.
- عندما ننزعج من تصرفات معينة لدى الآخر، لكننا نعرف بأنه لا يستطيع أن يغير منها.
- عندما تنتابنا أحلام جنسية تتعلق بشريك آخر.
- عندما لا يطيق أحدنا أصدقاء وصديقات الطرف الآخر.
- عندما يغازل لزيادة شعوره بالأهمية.

هناك ضرورة لوجود بقية من عدم المعرفة، من الغموض والصمت، تجعل الإنسان موضع اهتمام الشريك أو الأصدقاء، فالشفافية الكاملة والانفتاح المطلق على الآخرين تجعل الإنسان مملاً ومضجراً يمكن التلاعب به بسهولة.

obeikan.com

لا شك بأن الرغبة في الاندماج عند المحبين هي أكثر من مفهومة، وقد سبق لكل إنسان أن أحس بها. لكن من يجعل من الاندماج قضية مثالية فسوف يحوّل، على المدى الطويل، حديقة حبه الغنّاء إلى صحراء قاحلة.

فالتماهي المبالغ فيه وضيق الحيّز الشخصي أمران في غاية الخطورة على الشريكين. والغيرة هي غالباً دليل على الاندماج العاطفي القوي وعلى الاستقلالية المنقوصة.

من يكن غيوراً لا يمكنه أن يتحمل أن يكون الشريك كائناً منفصلاً عنه، ولا يستطيع معرفته أو امتلاكه على نحو كامل. وعلى العكس، فالثابت والمشائق هو علاقة يكون فيها الآخر فرداً مستقلاً بذاته، ومن ثمّ يبقى محور اهتمام. ليس من الضروري أن يطلع الشريك على كل فكرة وكل خيال وكل رغبة. وليس من الضروري أيضاً أن نبحث معه كل خطة غير ناضجة ونطلعه على كل رغبة أو شهوة. ومعرفة أن لدى الشريك الحبيب جوانب غير معروفة هي دافع جنسي محرض بحد ذاته لعلاقة ما.

ويرى أستاذ الفلسفة موريس. ت. ماشينو أن الكذبة بين حبيبين هي وسيلة مشروعة من أجل الحفاظ على الاستقلالية في ظل حياة الشراكة. فعندما أراد القيام ببحث حول موضوع «الحب الحقيقي» بحث عن طريق الإعلان على أزواج مستعدين للتحدث معه عن مسألة الإخلاص في الحياة الزوجية. فأبدى العديد من المهتمين استعدادهم لهذا الأمر. ولكن بدلاً من الحديث عن الحب والإخلاص تحدثوا عن موضوع آخر مختلف كلياً. فقد تحدثوا عن الخيانة وعدم الإخلاص والكذب. أخيراً توصل الفيلسوف

إلى نتيجة تقول: «إن الكذب هو وجه من وجوه الحب». الزوجان المتحابان بالفعل يعمدان إلى الكذب «الجيد» للوقاية الذاتية أولاً ومن ثم الآخرين.

لماذا يكذب المحبون؟ يحصل الكذب عندما يشعر الناس بأن هناك ما يشوش على حميميتهم، كما يقول ماشينو:»الشيء الذي لا يمكن أن يتحقق تقريباً هو السعي الحالي نحو الشفافية التامة في علاقة الشريكين التي تعد مؤشراً على الحب والثقة. فلم يعد لدى الناس أدراجاً مقفلة لا تخص أحداً سواهم». بعضهم يعمد هنا إلى الكذب من أجل ضمان وجود الحيز الضروري من الحرية. وقد روى أحد الأزواج لأستاذ الفلسفة بأنه يكذب على زوجته لسبب وحيد هو أنه يريد بين الحين والآخر أن يعيش ولو لساعة واحدة لنفسه. وخلص البحث كما يقول الأستاذ إلى أن «الزوجين الناجحين في حياتهما على مدى سنوات لا يبوحان لبعضهما بكل شيء. ففي علاقة ناجحة تتكامل الحقائق مع غير الحقائق على ما يبدو على أحسن ما يرام».

ليس السر وحده هو الذي يخدم علاقة حب بين حبيبين. بل قد يحدث أيضاً أن يكتم الزوجان معاً مسألة معينة، فيمكن أن يصبح هذا السر رابطاً قوياً بينهما. وفي هذا الصدد يروي «هلموت» القصة الآتية:

× مثال: عندما تعرَّفت زوجتي الحالية، وليكن اسمها ساندرا مثلاً، كنت متزوجاً وعندي طفلة عمرها أربع سنوات. لم تكن حياتي الزوجية غير سعيدة، لكنها في الوقت نفسه لم تكن سعيدة. ولم أفكر بالانفصال عن زوجتي البتة. لكن ساندرا قلبت حياتي رأساً على عقب، وكنت أعلم أنها المرأة التي يمكن أن تشاركني حياتي. فأول مرة أشعر معها بأن هناك من

يفهمني ويعترف بي وأدركت كم كانت حياتي الزوجية بائسة وباهتة. بدأت بعلاقتي مع ساندرا، طبعاً في السر، وكنا نعمل معاً في الشركة نفسها. وطرأ تغير على حياتي، ولكن سرعان ما عرفت زوجتي بالأمر. وهنا فُتحت أبواب الجحيم، فهددتني بأنها ستنتحر، ومن ثَمّ ستحرمني من ابنتي الحبيبة. كنت آنذاك في منتهى الحيرة والارتباك والفوضى، لا أدري ما يمكن أن أفعل. ولكي أتغلب على صراعاتي إلى حد ما زاد ولعي بالشرب عن الحد الذي يمكن أن يكون مفيداً لي. فأصبحت أفقد السيطرة على نفسي في تلك الحالات. وكان أقل اتهام من ساندرا وكذلك غيرتها يزيدان من غيظي. فشعرت بأنني أعاني الإرهاق ولم أدر كيف أتصرف. وفي قمة حيرتي وارتباكي ضربت ضربتي. لم يسبق لي أن كنت في مثل تلك العدوانية، ولم أكن مرة يمثل تلك الوحشية، لم يكن الأمر مجرد هفوة عابرة بل بقيت مدة طويلة في منتهى القسوة مع حبيبتي. مرة جرحتها بقسوة بحيث انقطعت عن عملها بضعة أيام، لقد عانت على نحوٍ مخيف. وأنا أعتقد بأنها لم تعد تعلم إن كانت ما تزال راغبة بي، لكن بالرغم من ذلك كانت هناك أوقات جميلة نقضيها معاً كنا فيها واثقين بأن كل تلك الفوضى التي ألحقت الضرر بحبنا ليست بالأمر الجدير بالذكر.

بعد سنوات عدة من عدم اتخاذ قرار استطعت أن أخرج من إطار الحياة الزوجية، وكانت ابنتي قد أصبحت في سن الحادية عشرة، ولم يعد خوفي كبيراً من فقدانها. في الواقع لم يكن طلاقي لزوجتي بالأمر السهل، لكنني تحررت أخيراً. وعندما سألت ساندرا فيما إذا كانت راغبة بالزواج مني، طلبت أن نبحث ذلك بهدوء عبر الحوار. قالت لي إنها

تحبني لكنها تخاف من حالات العنف التي تتفجر عندي، ولذلك تعتقد بأنها غير قادرة على الاقتران بي. استمر نقاشنا طوال تلك الليلة. ولست أدري كيف استطعت أن أعدها بكل صدق بأنني لن ارفع يدي عليها مرة أخرى البتة. ووعدت هي بدورها أن تدفن هذا الموضوع في المستقبل إلى الأبد وتعد أن ما حدث هو في حكم المنتهي الذي وضع على الرف.

تزوجنا، وحافظ كل منا على الوعد الذي قطعه. وما من أحد يعلم شيئاً عن سرنا -وحشيتي- إلا نحن الاثنان فقط. وبعد ذلك تحول ذلك إلى سر يكتمه أحدنا عن الآخر، لم نعد البتة إلى الحديث عن هذه الذكرى الأليمة لساندرا ولي أيضاً، وأنا أعتقد أن هذا التكتم هو سبب سعادتنا الزوجية. ولو أن ساندرا ذكرتني بين فترة وأخرى بذلك، فلن يكون ذلك مجرد ثقيل الوقع عليّ، بل لكان أرخى بظلاله على علاقتنا، ولكان عليّ أن أفترض بأنها لن تغفر لي البتة.

الأسرار تخدم مصلحة الحب. لقد عرف بودلير ذلك بقوله «يزداد حبنا للنساء كلما كن غريبات عنا» وهذا القول ينطبق أيضاً على الجنسين. يجب أن يبقى الرجل بالنسبة لزوجته، والمرأة بالنسبة لزوجها لغزاً وسراً إلى حد ما. الحب بحاجة إلى الصراحة والأمانة، لكنه بحاجة أيضاً إلى أسرار. أما مدى تعقيد ذلك فتصفه الكاتبة أدرينه ريتش قائلة:

«لكي تكون علاقتي بك صادقة، ليس من الضروري أن أفهم كل شيء أو أقول لك كل شيء. وليس من الضروري أن أعلم سلفاً ماذا أريد أن أقول لك. هذا يعني بأنني في أغلب الأحيان فضولية وتواقة إلى خلق إمكانيات

obeikan.com

لأقول لك شيئاً. إمكانات ربما كانت مخيفة لكنها ليست مدمرة بالنسبة لي. أشعر فيها بأن لدي ما يكفي من القوة لسماع كلماتك المتقصية والمتفحصة، كلانا يعلم بأننا نسعى بلا توقف من أجل إمكانية إحلال الحقيقة بيننا».

لماذا يحتاج الحب إلى أسرار:

عندما يتحاب اثنان يفضلان أن يبعدا كل ما يمكن أن يفرقهما. ومن المفروض أن تولد الصراحة المطلقة والألفة. لكن ما يغري وما تبذل الجهود من أجل تحقيقه يصبح مع الأيام أنشوطة حول العنق. فالشريكان اللذان لا يحتفظان بأسرار عن بعضهما بعضاً سوف يسأمان من بعضهما يوماً ما ويفقدان الألفة.

فالمشكلات التي تنتاب العلاقات التي تصل حتى الخيانة الزوجية يمكن أن تكون ناتجة عن عدم وجود الأسرار في حياة الشراكة. وبالعكس، فإذا ما أقر الحب بوجود «مجالات لحرية الحركة» ويمكنه تحمل بقاء الآخر على مسافة معينة منه. بذلك تخلق الشروط المثالية للسعادة الدائمة.

6- الأسرار تقينا من الإدراك المؤلم للذات:

«في ذكريات كل إنسان هناك أشياء لا يبوح بها لأحد، أو يقتصر البوح لها على الأصدقاء. لكن هناك أيضاً أشياء لا يكشف عنها حتى للأصدقاء، بل يحتفظ بها لنفسه فقط، تحت ستار من الصمت المطبق.

أخيراً توجد أيضاً أشياء يخشى المرء حتى من البوح لها لنفسه. مثل هذه الأشياء تتراكم عند كل إنسان سوي لتصبح كماً هائلاً».

كان الكاتب فيودور دوستوييفسكي عارفاً متعمقاً للنفس الإنسانية. وهذا ما يؤكده هذا الاقتباس من روايته بعنوان «ملاحظات من الأعماق».

فحتى قبل سيغموند فرويد Sigmund Freud مكتشف ما تحت الشعور أدرك دوستوييفسكي بأنه لا توجد مجرد أسرار يكتمها المرء عن الآخرين، بل إن الإنسان قادر أيضاً على إخفاء أسرار حتى عن نفسه.

ينمُّ هذا الكلام أول الأمر على تناقض. فهل يمكن للمرء أن يخفي شيئاً ما عن نفسه؟ هل يمكن أن يكون للمرء أسرار تجاه ذاته؟ هل هذا ممكن؟ هل يمكن أن أكون الكاذب والمكذوب عليه في آن واحد؟ هل يمكن لي أن أعلم شيئاً وفي الوقت نفسه أخفي هذا العلم عن نفسي؟

مثال بسيط يوضح لنا أن ذلك ممكن. رجل لم تمض على طلاقه من زوجته سوى مدة وجيزة لا يمكنه بالطبع أن يخفي هذه الحقيقة، لا عن نفسه ولا عن الآخرين. لكن يمكن أن يخدع نفسه حول الأسباب التي أدت إلى الطلاق. فربما يقنع نفسه بفكرة أنه لا ذنب له على الإطلاق في تصدع حياته الزوجية، ومن ثمّ يتناسى حقيقة أن خياناته الزوجية المتكررة هي الشيء الذي لم تعد زوجته قادرة على تحملها.

كارل أيضاً يخفي منذ 18 عاماً سراً عن نفسه أو على الأقل هذا ما تعتقده أخته التي تجاوبت مع إعلاننا «البحث عن أسرار»:

obeikan.com

مثال: منذ 18 عاماً كانت زوجة أخي حاملاً في أشهرها الأخيرة وكان أخي فرحاً جداً بقدوم أول مولود له الذي كان يعرف أنه صبي. كان فخوراً إلى أبعد الحدود. لكن قبيل ولادة الطفل أخبرته زوجته، والدموع تخنقها، بأنها ليست متأكدة من أنه هو أب الطفل، فقد سبق لها أن تورطت في علاقة قصيرة الأمد مع أحد زملائها، وكان ذلك أثناء أيامها المخصبة. ولذلك يمكن لهذا الزميل أن يكون أب الطفل المنتظر. فأصيب أخي بالانهيار ثم هاتفني. حاولت ليلة بكاملها أن أواسيه وأشد عزيمته. وعند الصباح اتخذ قراره: «سوف أنطلق من فكرة أنني سأعتبر هذا الطفل الذي سيولد قريباً من لحمي ودمي. ولن أقدم يوماً على إجراء فحص التأكد من أبوتي له. ولن أفكر بهذا الموضوع في أي وقت من الأوقات». بدا لي ذلك آنذاك أمراً لا يمكن تصديقه، وكنت أشك بأن حياة أخي الزوجية سوف تصمد تحت هذا العبء. لكن أعلم الآن أنه استطاع أن يطرد الشك من إدراكه. إنه بالفعل والد حنون لابنه. وحسب إدراكه فإنه يعيش حياة زوجية عادية تماماً. لم تعد تلك الليلة الرهيبة، أو خيانة زوجته، موضوعاً للبحث فيما بيننا. ولا أظن بأن أخي قد تطرق بعد ذلك إلى هذا الموضوع مع زوجته. فقد اعتبر أن القضية أصبحت في حكم المنتهية ووضعت على الرف. وطبعاً لذت أنا بالصمت أيضاً، ولن أقدم يوماً على تذكيره بتلك الليلة المأساوية التي مرت عليه قبل 18 عاماً.

كان سيغموند فرويد Sigmund Freud مؤسس التحليل النفسي أول من انشغل بمسألة إن كانت هناك آليات Mechdnisms يمكن للنفس البشرية أن تقي نفسها بها من المشاعر والأفكار المحرجة أو المخيفة. فأنشأ نظرية

التحليل النفسي يتم بموجبها الحيلولة دون وصول الأشياء المحرجة والمؤلمة التي لا يمكن تحملها إلى الوعي وذلك عبر آليات دفاع متعددة.

وقد تم استخدام آليات الدفاع هذه باستمرار وعلى نحو عفوي، وفي كتابه الصادر عام 1900، تحت عنوان «تفسير الأحلام» يصف فرويد كيف يتم تخزين المدارك في الذاكرة. وهو النموذج الذي يقر العلم الحديث بأفكاره الأساسية.

وحسب هذا النموذج يتم تعرض الانفعالات المدركة والمعلومات أثناء طريقها عبر الجهاز النفسي إلى اختبار. فليس كل شيء يُرى أو يُسمع أو يُحس به يأخذ طريقه إلى الإدراك. حيث يتم تصنيف المعلومات أول الأمر إلى نظم فرعية من أنظمة الذاكرة قبل أن تدخل إلى «درج» ما تحت الشعور، ثم تخضع مرة ثانية للرقابة. وحسب ذلك تصل المعلومات إلى قسم ما قبل المدرك Vorbewusstes وبعد أن تتخطى هذا الحاجز يتم إدراكها بوعي. فكل ما يمكن أن يثير الخوف أو يعدّ محرجاً أو محظوراً يخضع للرقابة وتتم تصفيته باستمرار إلى أن يبدو هيناً ويصبح مُدرَكاً.

آليات الدفاع: البعد عن الحقيقة:

تقوم ما تسمى بآليات الدفاع، باعتبارها تقوم بدور الرقيب، على خدمة النفس البشرية حسب نظرية التحليل النفسي، حيث تعمل على إبقاء بعض الأحداث مدفونة بالسر حتى في أعماقنا نحن. ومن أهم آليات الدفاع:

الكبت: عندما نكبت شيئاً غير مرغوب فيه فإننا ننساه ولا نستطيع بالنتيجة أن نتذكره البتة. والأشياء المرشحة للكبت هي مثلاً الرغبات

الجنسية الممنوعة والخيالات التي يطغى عليها الخجل والذكريات الجارحة. فقد كبت كارل معرفته بخيانة زوجته والنتائج التي كان يمكن أن تترتب على تلك الخيانة، فلم يعد يتحدث عنها أو حتى يفكر بها، وأصبح لا يشك بنسب ابنه بل عدّه من صلبه وباكورة نسله.

الإنكار: عندما ننكر شيئاً فإننا بذلك نمتنع عن قبول حالات معينة وأحداثاً كما هي. والأمر هنا يختلف عن الكبت؛ لأننا في هذه الحالة نتذكر الحدث لكننا نلف حول الحقيقة وندور بحيث يصبح احتمالها مقبولاً. وأحياناً يقول أحدنا لنفسه: «لا علاقة لي بذلك» أو «لا شأن لي بهذا الموضوع» أو «ليس الذنب ذنبي» فإذا ما فشلنا مثلاً في امتحان، نحمي أنفسنا من الاعتراف بأننا «لم نستعد للامتحان بالوجه المطلوب» بإلقاء الذنب على لجنة الامتحانات أو على أسئلة الامتحان الصعبة أو على أي عوامل خارجية أخرى.

أيضاً نحو 80% من السائقين يعمدون إلى آلية الإنكار عندما يزعمون بأنهم في عداد أفضل 5% ممن يقودون عربات. ولكن هذا التقويم الذاتي لا يصمد أمام إحصاءات حوادث السير، ولا حتى أمام الإحصاءات الشخصية.

حالة من حالات الإنكار الواضحة جداً مرت بها إحدى شركات التأمين التي تلقت تقريراً من أحد المؤمن عليهم على النحو الآتي: «اقترب عمود الهاتف، وبينما كنت أحاول أن أتفاداه صدم الغطاء الأمامي» وكتب آخر: «عندما اقتربت من التقاطع ظهرت أمامي فجأة لوحة وقوف، ولم يسبق أن وجدت هناك أي لوحة من قبل».

obeikan.com

يتم الإنكار أيضاً عندما يمارس الشاذون جنسياً من الرجال الجنس دون اتخاذ إجراءات وقائية ويعتقدون «لن أصاب بالعدوى» أو عندما لا يفكر مدخن بخطورة الإصابة بسرطان الرئة بقوله إن جده المدخن عاش 85 سنة.

كذلك «أوتو» أيضاً استخدم آلية الإنكار لكي يستطيع النظر إلى نفسه، أو هكذا تبين لنا مما روته لنا صديقته السابقة:

× مثال: كان «أوتو» حبي الكبير، كنت مفتونة به. مفتونة لدرجة أنني أول الأمر لم ألحظ الجوانب السيئة منه. كان سريع الغضب إلى أبعد الحدود ولم يكن يستطيع السيطرة على انفعالاته إلا بصعوبة. عندما كان يحدث نزاع، أو عندما لا يكون موافقاً على شيء، كان يصرخ ويزمجر هنا وهناك، حتى إنه ألقى في إحدى المرات بالمزهرية من النافذة. وذات يوم خرج عن طوره أثناء إحدى حالات الخصام. ظل يصخب ويهدر حتى خرج عن طوره فأمسك بكرسي وأراد أن يقذف به إلى الجوار عندها لمحني وبكل عنف وقوة أصاب الكرسي قدمي. شخّص طبيب الإسعاف الحالة بأنها كسر في القدم. ظلت قدمي في الجبس مدة ستة أسابيع ولم أستطع الحراك إلا على عكّازة. وبسبب خجلي لم أخبر أحداً -حتى الطبيب- بالحقيقة، بل اخترعت قصة يمكن تصديقها بادعائي بأن آلة كاتبة (لم يكن الحاسوب قد وجد بعد) سقطت على قدمي، وقد صدقني الجميع. وعندما أردت أن أكلم «أوتو» فيما بعد -بعد أن انفصلنا عن بعضنا- عن غضبه وعن القدم المكسورة قال بكل جدية: «لكن ذلك لم يكن ذنبي. أنت السبب في وقوع الآلة الكاتبة على قدمك».

نمارس الإنكار أيضاً عندما نلون ماضينا بألوان زاهية. وتؤكد الدراسات النفسية بأننا نتذكر على نحو انتقائي، فالنجاحات حاضرة لدينا دائماً، أما الإخفاقات فنريد نسيانها. ولبلوغ هذا الأثر ندرك أحداثاً مشوّهة. فإن فشلنا في شيء نرد ذلك إلى الظروف غير المناسبة، أو إلى سوء الحظ، أو إلى أخطاء الآخرين. وعلى العكس، فإن نجحنا في شيء فإننا نرد سبب ذلك عادة إلى ذكائنا وقدراتنا. وعندما نخسر لعبة تنس فإننا لا نقول عادة لشريكنا في اللعبة «لقد أجدت اليوم في اللعب» بل نعمد إلى تبريرات خسارتنا، مثل: «لم أنم براحة» أو «كنت مشتت الذهن لأنني كنت دائم التفكير بمشكلة فلان من الناس».

قال إندريه جيد Andre Gide «لكل منا أسلوبه في خداع نفسه، لكن المهم بالدرجة الأولى هو القناعة بالأهمية الذاتية». إن الإنكار كآلية دفاعية يساعدنا كثيراً في ذلك. فإذا ما راقبنا أنفسنا فإننا نفعل ذلك عادة بالكثير من حسن النية وبمصفاة إيجابية أمام العدسات التي ننظر عبرها. وهذا ما زعمه بعد دوستوييفسكي زميله الكاتب هاينرش هاينه Heinrich Heine بقوله: «سير ذاتية مطابقة كلياً للحقيقة مستحيلة تقريباً، فالإنسان يزخرف بالتأكيد دائماً الكثير مما يقوله عن نفسه، وحسب رأيه فقد كذب روسو بالتأكيد مثلاً في اعترافاته فيما كتبه عن نفسه، حتى وهو واعٍ بما يكذبه، وذلك حباً في الشهرة».

أما الدافع فهو ليس دائماً حب الشهرة أو الغرور، بل غالباً الوقاية الذاتية عندما نستعيد تذكر ما هو إيجابي بالنسبة للصورة التي نحملها عن ذاتنا. فالأحداث التي لا تلقي علينا ضوءاً جيداً يفضل «نسيانها».

obeikan.com

والذكريات تتغير مع الزمن؛ لأننا نعطي قصص حياتنا دائماً مخرجاً له طابع خاص وغالباً إيجابي. وقد تحدث ألفريد آدلر Alfred Adler في هذا السياق عن «عملية هضم» تقوم بها الذاكرة. ولا نحتفظ إلا بما يتناسب مع صورتنا الذاتية والمفهوم الذاتي، لكن -وكما قال آدلر- ننسى ما «لا يروق» لنمط حياتنا. إننا نتذكر بالدرجة الأولى ما يتطابق مع الصورة التي نحملها عن ذاتنا. فعملية التذكر تتم بصورة انتقائية وأنانية. وفي هذا تساعدنا آلية الدفاع القائمة على الإنكار.

تشكيل رد الفعل: آلية الدفاع هذه تعمل أول الأمر أيضاً بالإنكار. («أنا لا أكره زوجي») لكنها لا تقف عند ذلك بل تقلب المعرفة المهددة إلى عكسها بالقول: («أنا أحب زوجي») إذ يمكن التعبير عن هذه المشاعر غير المرغوبة، أو التي تعد سلبية، بهذا الأسلوب غير المؤذي.

يخفي بعض الناس عدوانيتهم وغضبهم غالباً خلف لطافة مشددة واهتمام مبالغ فيه، أو يحاولون تمويه نفورهم واشمئزازهم وكراهيتهم عن طريق سلوك في منتهى الدقة. وقد تم التحقق من ذلك عبر تجربة نفسية: تم عرض مجموعة من الصور تُظهر مجموعة من المحبين من أعراق مختلطة، على أناس من العرق الأبيض أجريت عليهم التجربة والذين يصنفون أنفسهم بأنهم متحررون ومتسامحون. وبموازاة ذلك تم قياس درجة مقاومة بَشَرَة الأشخاص الذين تجرى عليهم التجربة. وزعم القائمون على التجربة (خلافاً للحقيقة) بأن قوة الانفعال تدل على وجود أحكام عنصرية سابقة قوية. وعندما غادر هؤلاء الأشخاص المتهمون

بالعنصرية بهذا الأسلوب بعد التجربة، المبنى، مرّوا على متسول طلب منهم مساعدة. فلو كان المتسول أبيض البَشَرَة لما أظهر هؤلاء حماسة لمد يد المساعدة. أما لو كان الأمر يتعلق بمتسول أسود البشرة فإنهم سيقدمون له يد المساعدة بسخاء أكبر. وقد خلص العلماء إلى نتيجة أن ذلك يعد حالة نموذجية لتشكيل ردة الفعل. فبكرمهم الزائد أراد الأشخاص الذين أجريت عليهم التجربة أن يثبتوا لأنفسهم بأنهم لا يحملون أي أحكام سابقة عن السود.

الإسقاط: عندما لا يستطيع المرء أن يطيق حتى نفسه، يمكنه أن يسقط ما يزعجه على شخص آخر. فالمرء يلقي بالصفات السيئة وأساليب السلوك الغبية أو المشاعر غير السارة على عاتق شخص آخر. ويكون الإسقاط واضحاً عندما ينتقد شخص بخيل بخل وشح شخص آخر، وعندما يشك زوج يخون زوجته بسلوكها، وعندما يختلق الرجال ذوي الميول الجنسية الطبيعية نكاتاً عن الشواذ جنسياً وذلك من أجل السكوت عن بقية ميول جنسية شاذة لديهم. فالإسقاط يساعدنا على كبت الأفكار المقلقة والخطرة المتعلقة بنا شخصياً وجعلها سراً يعتمل في داخلنا.

العقلنة: تفيد آلية الدفاع هذه في جعل ذكرى حادثة محرجة قابلة للتحمل. فحكاية أو حادثة تتعلق بنا يتم تحويلها لصالحنا. وهكذا يمكن مثلاً لمديرة تخاف من إلقاء كلمة أمام حشد من الناس، ولذلك لا تنبس بكلمة واحدة في الاجتماعات، أن «تعقلن» سلوكها، بقولها لنفسها «لن يتحدث في هذا اللقاء -بطبيعة الحال- إلا الرجال الذين يريدون البروز. ولذلك لن أشارك في هذه المسابقة».

obeikan.com

كما يظهر من المثال الآتي كيف يمكن للإنسان أن يقي نفسه عبر العقلنة من الحقيقة المحرجة: طالب يسأل فتاة ثلاث مرات فيما إذا كانت تريد الخروج معه. وفي كل مرة يجابه بالرفض بحجة بأن عليها أن تعمل. وبدلاً من أن يتذمر يقرر الشاب بأنه لا يهتم بمثل هذه الإنسانة التي لا تعيش إلا من أجل عملها. إنه لا يريد أن يفهم بأن سبب رفضها يكمن في شخصه هو. إنه يحفظ شعوره بكرامته عبر الخداع، ويبقى قادراً على التصرف؛ إذ يمكنه أن يتحول إلى نساء أخريات بكل جرأة.

العزلة: لا تُدرك المعلومات المحرجة أو المذهلة على النحو الكامل، بل فقط على نحو عابر. وتصبح العزلة ممكنة عبر تقنية «الإدراك الانتقائي». إننا لا نعير انتباهاً إلا إلى ما يناسب الصورة التي نحملها عن ذاتنا ومع ما نأمله. وكل ما عدا ذلك يوضع ضمن قوسين. وقد استطاع الباحث في علم النفس الاجتماعي روي باومايستر Roy Baumeister في إحدى تجاربه أن يثبت هذه الآلية:

قام طلاب بإملاء استمارات تتعلق بالشخصية ثم تلقوا بعدها هاتفياً معلومات عن أنفسهم. بعضهم تلقى -بطريق المصادفة المحضة- استجابة إيجابية وبعضهم الآخر انتقادية. أولئك الذين سمعوا ردة الفعل السلبية لم يهتموا بذلك إلا قليلاً فقد حالوا دون نقاش أعمق. أما الذين تلقوا رد فعل إيجابياً فقد سخروا له قدراً أكبر من الاهتمام.

إننا نصغي بكل جوارحنا عندما يبدي الآخرون تأييدهم لنا ولرأينا. لكن هذا الإصغاء يقف عندما لا يناسب ذلك أهواءنا. فعندما يكون المرء على سبيل المثال واثقاً بأن ابنه يمثل قمة الذكاء، فإنه على الأرجح لن

يعير انتباهه إلا لما يؤيد هذه القناعة. وسوف يتجاهل كل ما يبدد الأمل بأن ابنه سيكون الطفل المعجزة. ومن منطلق الوقاية الذاتية نتعامل مع الأخبار السلبية غير المناسبة كما نتعامل مع البريد الالكتروني العشوائي، فلا نفتحه أول الأمر البتة؛ لأننا نعرف في قرارة نفسنا عما يدور فيه، ومن ثمّ نسارع إلى إلغائه.

كل آليات الدفاع هذه تساعد على تحويل الأحداث والمشاعر والأفكار الضاغطة والداعية إلى الخوف وتنطوي على الخجل، إلى سر يحمينا ويقينا من إدراكنا غير المريح لذاتنا. وقد انطلق سيغموند فرويد من فكرة أن الأسرار التي يخفيها المرء عن نفسه تمنعه من أن ينعم بحياة نفسية سليمة.

إن الأشياء المكبوتة غير المدركة، أو تم إنكارها، تشكل حسب النظرية الفرويدية عائقاً قوياً؛ لأنها يمكن أن يكون لها، وهي تتبع طرقاً ملتوية، تأثير سلبي على المدرك. ولذلك فإن الهدف من العلاج بالتحليل النفسي هو تعطيل آليات الدفاع واسترجاع المكبوت إلى الذاكرة. فعبر التذكر والإعادة والتمرين يمكن للإنسان بلوغ قوة احتمال نفسية.

إن خداع الذات -بأي وجه كان- هو حسب نظرية التحليل النفسي ضار بالصحة النفسية. فإذا ما أراد المرء أن يمسك بزمام حياته يجب عليه أن يرى الحقيقة كما هي. وحسب سيغموند فرويد: «يبقى تحمل الحياة هو الواجب الأول لكل الأحياء. ويصبح الخيال لا قيمة له عندما يعيقنا في ذلك». وعلى المنوال نفسه كانت أفكار كبار علماء النفس الآخرين مثل ايريك ايريكسون، أريش فروم، أبراهام ماسلوف، وغيرهم كثيرون الذين

عدّوا أن من السمات الأساسية للصحة النفسية هو إدراك الحقيقة بأقل قدر من التشويه وأن لا يخدع المرء نفسه.

من دون أوهام تصبح الحياة صعبة:

مع ذلك ترتفع نبرة الشكوك بصورة متزايدة: هل حقاً لا ينعم بالسلامة النفسية إلا من يرى الحقيقة كما هي؟ ألا يقف على رجليه في الحياة إلا من لا تنتابه الأوهام والخيالات عن نفسه وعن محيطه ولا يخفي عن نفسه أي سر؟ هل يطمح الإنسان إلى حالة كالتي يصفها آلن ويليس Allen Wheelis في قصته الرمزية تحت عنوان: «رجل بلا أوهام»:

«كان هناك رجل يخلو من التصورات (الأوهام). فقد أدرك وهو ما يزال في المهد بأن والدته لا تعامله دائماً معاملة جيدة. وفي سن السنتين لم يعد يؤمن بوجود الساحرات. أما الجنيّات والأقزام فقد اختفت من عالمه وهو في سن ثلاث سنوات. وفي سن الرابعة كان يعلم أن الأرانب لا تضع بيضاً. وفي الخامسة تخلى في ليلة باردة من ليالي كانون الأول بابتسامة مرة، عن بابا نويل. وفي السادسة عندما دخل المدرسة طارت أوهامه كالريشة في مهب الريح. فقد اكتشف أن والده لم يكن دوماً شجاعاً أو على الأقل شريفاً، وأن الرؤساء يمكن أن يكونوا رجالاً عاديين شقوا طريقهم في الحياة من الصفر، وأن ملكة بريطانيا تذهب إلى دورة المياه (المرحاض) مثلها مثل أي إنسان آخر. وأن المعلمة في المدرسة والسيدة الجميلة ذات الوجه الدائري والغمازتين لا تعرف كل شيء كما كان يظن، وأن جُلّ تفكيرها كان ينحصر في الرجال وليس أي شيء آخر. وفي مرحلة

الصبا أدرك بأن الأعمال السخية إنما تتم لمصالح خاصة، وأن أكثر الأبحاث موضوعية لها أهداف ذاتية، وأن أكثر ما ينشر هو كذب».

هل يمكن تحمل مثل هذه الحقائق؟ وقد سبق أن أعلن أوتو رانك Otto Rank من قبل «لا يمكن للمرء أن يعيش مع الحقيقة، ولكي يستطيع الحياة يحتاج المرء إلى الخيال» خبراء آخرون يعتقدون أيضاً -بخلاف فرويد- بأن النفس أحياناً تتصرف بحكمة عندما تستدعي -بمساعدة آليات الدفاع- بعض الحقائق، التي لا يمكن تحملها، إلى أرض الأسرار. ويعدون ذلك «إنجازاً ناضجاً» للنفس الإنسانية عندما تنجح في عدم الإدراك المقصود للأحداث والخبرات المسببة للألم والمعاناة والشك بالنفس، بل حتى إن تنساها نهائياً مع مرور الوقت.

هناك دراسة أمريكية أجريت على مائة سيدة تعرضن في صغرهن إلى اعتداءات جنسية، تؤكد على الأثر الواقي «للنسيان». كانت كل حوادث الاعتداء هذه موثقة رسمياً وبوضوح؛ لأن كل النساء المعنيات بهذا الموضوع تم الكشف عليهن في قسم الإسعاف التابع لإحدى المستشفيات وقام الطبيب بتشخيص هذه الحالات.

38 سيدة منهن لم يتذكرن ما حدث لهن آنذاك البتة، ولا حتى الكشف عن حالاتهن في قسم الإسعاف. إذن يمكن القول إنهن أخفين حتى عن أنفسهن ما حدث لهن وهن فتيات قاصرات. كانت الحالة النفسية لهؤلاء النسوة أفضل منها لدى الأخريات اللواتي لم يستطعن محو تعرضهن للاغتصاب في مرحلة باكرة من حياتهن من الذاكرة.

تلقي مثل هذه الدراسات ظلالاً من الشكوك فيما إذا كانت ما تسمى «بالمعالجات الكاشفة» التي يعثر عبرها المرضى على أحداث كانت تشكل صدمة بالنسبة لهم، التي لم يكونوا يتذكرونها قبل المعالجة. فهي مجدية في كل الأحوال ومفيدة للصحة. وفي كثير من الأحيان تكون النفس البشرية من الذكاء بمكان بحيث تقي صاحبها -عبر النسيان الصحي- من الحقائق المؤلمة جداً.

«معرفة الذات هي دائماً خبر غير سار» هكذا كتب الروائي الأمريكي جون بارث John Barth، ولذلك نقي أنفسنا من الحقيقة الكاملة والمتأصلة في أعماق النفس بحيث لا نريد أن نعلم كيف نحن بالضبط. وفي هذا المجال تساعدنا القدرة على كتمان معلومات معينة تتعلق بذاتنا، ليس عن الآخرين فقط، بل حتى عن أنفسنا أيضاً.

فخداع الذات والكذب عليها هما إمكانيتان للاحتفاظ برأي جيد عن ذاتنا وإعطاء كينونتنا جدوى. وبما أن الفجوة بين الصورة المثالية والصورة الحقيقية عن ذاتنا ستكون كبيرة لو أدركنا كل شيء في صيغته الأصلية، وتذكرنا أيضاً كل ما يضايق أو يزعج، فإننا نضلل ذاتنا عن ذاتها.

إننا، وعبر الأوهام الإيجابية، نحمي أنفسنا من الحقيقة المطلقة. ويتضح للباحثة في علم النفس الاجتماعي شيلي تايلور Shelly Taylor «أن ما من طريق في الحياة البشرية يمر على خداع الذات» وهذا هو الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى الصورة الذاتية الإيجابية. وعلى الأرجح تفيد القدرة على خداع النفس على تحقيق التكيف مع الواقع على نحو ناجح.

Abbeikan.com

إن عدم كشف المرء عن أسراره، حتى أمام نفسه، يمكن أن يكون مفيداً ويجعل الحياة سهلة. وهذا ما كشفت عنه الدراسات النفسية الاجتماعية حديثاً. وحسب هذه الدراسات فإننا نلوي الحقيقة حسب رغباتنا وتصوراتنا ونتأقلم مع ذلك. والنتائج المتوافرة حتى الآن تعطى الانطباع بذلك وتؤكد على أهمية خداع الذات على الصحة.

مثال: طلبت كل من الباحثتين شيلي. ي. تايلر ومارغريت. ي. كيميني وزملاء آخرون من 68 رجلاً شاذاً جنسياً ومصاباً بالإيدز بأن يقوم كل منهم بتقويم حالته الصحية ومزاجه. وسألتا عن تصوراتهم كيف ستتطور إصابتهم بالإيدز. ونتيجة هذه الأسئلة برزت هناك مجموعتان: فمجموعة «الواقعيين» لم تسبح في الأوهام حول الوضع الصحي وتطور الإصابة بالمرض وكانت تعرف بالضبط ماذا حل بها.

أما مجموعة «الواهمين» فعلى العكس، فقد كان موقفها غير واقعي وكانت لها آمال في منتهى الإيجابية. وكما ظهر في بحث لاحق فإن الرجال المتفائلين عاشوا نحو تسعة أشهر زيادة عن أولئك الذين كانوا ينظرون بواقعية إلى مستقبلهم.

كما تبين من دراسة أخرى للسيدة تايلور وفريق عملها أن التفاؤل غير الواقعي لا يعطي المعلومات الدقيقة عن بداية الإصابة بمرض الإيدز. فالمصابون بهذا المرض الذين كانوا ينظرون عبر نظارة وردية إلى تطور مرضهم، ولم يهتموا بوفاة أحد أصدقائهم بمرض الإيدز، ظلوا مدة أطول بصحة جيدة أكثر من المصابين الذين كانوا يعلمون بالضبط ماذا حل بهم؛ لأنهم فقدوا صديقاً توفي بهذا المرض. وقد خلصت السيدة مارغريت

obeikan.com

كيميني إلى نتيجة «أن المرضى المصابين بمرض لا شفاء منه والذين ينسجون الأوهام حول ذلك، فإنما يفعلون شيئاً مفيداً لصحتهم».

نتائج مشابهة أسفرت عنها دراسات أخرى: فالمرضى الذين لا يأخذهم التفكير بعملية جراحية سيخضعون لها، كانت آلامهم أقل جداً من آلام أولئك الذين تخوفوا منها، وانشغلوا بالتفكير بها، وجمعوا الكثير من المعلومات عن سبب مرضهم ومجرى العملية التي بانتظارهم. فعند الفئة الثانية كان مسار الشفاء أكثر تعقيداً. إذن فالموقف القائل «إن كل شيء سينتهي بسلام» يشكل عاملاً مساعداً للشفاء.

وفي دراسة أخرى أجريت على نساء بعد خمس سنوات من إجرائهن عملية استئصال ورم سرطاني في الثدي «بالنسبة لأولئك اللواتي أظهرن وقفة قوية في مواجهة المرض أو حتى تجاهلنه بالكامل بأنه سرطان، كان 75% منهن على قيد الحياة دون أن تظهر عليهن أي أورام جديدة. أو اللواتي تقبلن المرض بصبر وجلد، ووقفن أمامه لا حول لهن ولا قوة، فلم يبق منهن على قيد الحياة سوى 35% لم تظهر عليهن أي أورام متجددة».

وقد أظهر عالم النفس الأمريكي من نيويورك، هارولد زاخيم، في دراسة له أن الناس الذين يخادعون أنفسهم ويشوهون الحقيقة لصالحهم تكون صحتهم النفسية أفضل من الصادقين. قدّم للأشخاص الخاضعين للتجربة استمارة وطلب منهم أن يسجلوا فيها إذا سبق لهم مرة أن ساورتهم الشكوك بأنفسهم، بأن شعوراً بالذنب يعذبهم أو فيما إذا كانوا قد عرضوا أنفسهم مرة لموقف ساخر. فإن كانوا صادقين عليهم أن يجيبوا على مثل هذه الأسئلة بنعم، ولكن لم يكن الجميع صادقين.

فأولئك الذين أنكروا هذه الجوانب المحرجة تبين أنهم الأفضل من حيث الصحة النفسية. أما الآخرون الذين لم يدّعوا العظمة فكانوا أقل استقراراً نفسياً.

إن نتائج مثل هذه الدراسة وغيرها لا تترك مجالاً للشك بأن من يكون قادراً على خداع نفسه وغسل قساوة الواقع بمساعدة الأسرار التي يخفيها عن نفسه، يمكنه أن يتعامل مع مراحل الحياة القاسية على نحوٍ أفضل، ويبقى وضعه أسلم من الشخص الذي لا يملك مثل هذا الفلتر الواقي المصنوع من التخيلات والأوهام.

ويتحدث عالم النفس ريتشارد لازاروس Richard Lazarus عما يسميه «مهدئاً ضِمنَفسي» أي مهدئ ضمن النفس، يمكنه أن يساعدنا على أن نغمر الحقيقة وأنفسنا في نور أكثر رحمة. فالأوهام تضفي على الحقيقة «قوة دفع نحو الإيجابي» كما ترى شيلي تايلور. فالأوهام (التخيلات) تفيدنا في تحويل حالة ما صعبة إلى أفضل الحالات، وذلك عبر اتخاذ موقف منها أقرب ما يكون إلى الإيجابية.

إن للنفس البشرية «بقعاً عمياء» واضحة تماماً. فعن طريق خداع الذات لا نتقبل الآلام والحقائق المحرجة، أو نتقبلها ولكن إلى درجة يمكن تحملها. فالبقع العمياء تساعدنا على محو الإخفاقات والأحداث المخجلة من الذاكرة. وتساعدنا أيضاً على تذكر الأحداث الإيجابية بالدرجة الأولى وحجب الأحداث السلبية. وبدعم من الخداع الذاتي (خداع النفس) والأسرار التي نخفيها حتى عن أنفسنا يمكننا ممارسة حياتنا بوجه أفضل.

Obeikan.com

كما أن هنريك أبسن Henrik Ibsen الذي عالج في الكثير من أعماله قدرة الإنسان على خداع نفسه يجعل لهذا الخداع وظيفة مهمة بقوله: «خذ من الإنسان العادي كذبة حياته، تكون بذلك قد سلبته أيضاً سعادته».

أما مدى دقة هذه المقولة فتؤكده الدراسات التي أجريت على المصابين بالاكتئاب. وتظهر النتائج إن الأشخاص المصابين بالاكتئاب يدركون العالم وأنفسهم وقدراتهم الذاتية على نحو أكثر واقعية من غير المكتئبين. أوهامهم وخيالاتهم أقل، لا يخادعون أنفسهم، ويعرفون بالضبط مدى تأثيرهم على مجرى حياتهم. ودراسات متنوعة تؤكد على نظرة الأشخاص المكتئبين، الواقعية والخالية من الأوهام، إلى الحقيقة والواقع:

باحثون أمريكيون جعلوا في إحدى دراساتهم مرضى مصابين بالاكتئاب وآخرين غير مصابين به يتناقشون في موضوع ما. بعدها طلب من كل المشاركين في المناقشة أن يجروا تقويماً للوقع الذي كان لإسهامهم في النقاش على الآخرين.

بالإضافة إلى ذلك أدلى مراقبون حياديون أيضاً بصوتهم. وهنا فشل المصابون بالاكتئاب، وكما هو متوقع، أكثر من غير المكتئبين. فقد عدوا أنفسهم بأنهم لم يحسنوا الإقناع في حديثهم أثناء النقاش. أما غير المكتئبين فقد كانوا واثقين جداً من أنفسهم. وكان تقويمهم لذاتهم أفضل من تقويم لجنة المراقبين.

يتذكر المصابون بالاكتئاب بالدرجة الأولى الأحداث السلبية قبل الإيجابية، وهذا أيضاً ما تؤيده الدراسات. إن تذكر المكتئبين ليس مشوهاً بميله نحو السلبي، بل هو واقعي. ويبدو أن الدرع الواقي غير متوافر لدى

obeikan.com

المكتئبين، الدرع الذي يبعد عنهم قساوة الحقيقة. فهؤلاء لا يمكنهم أن يكذبوا على أنفسهم، وليس لديهم أسرار يخفونها عن ذاتهم. إنهم يدركون ما يخفيه الآخرون ولا يجدون عزاء في خداع النفس وطمأنتها.

وحتى في نتائج الأبحاث المتعلقة بمجال الاكتئاب تؤكد ما كتبته شيلي تايلور حول وظيفة الكذب على الذات والأوهام الإيجابية: «إننا نعرّف الآن الشخص السليم نفسياً بأنه ليس الشخص الذي يرى الأشياء كما هي، بل ذلك الذي يرى الأشياء كما يريد أن يراها».

لماذا يكون إخفاء المرء للسر عن نفسه أمراً ضرورياً؟

هل نريد حقاً أن نعلم كيف نحن؟ هل نريد دائماً وفي كل وقت أن ندرك نقاط ضعفنا الصغيرة والكبيرة، وإخفاقاتنا وفشلنا بصراحة تامة؟ لا، إننا لا نرغب بذلك. وقد سبق أن أشار سيغموند فرويد إلى أن نبعد الحقيقة الناصعة عن حياتنا بمساعدة آليات الدفاع. ولكنْ للمختصين في علم النفس الاجتماعي حالياً موقف يختلف عن موقف مؤسس التحليل النفسي؛ إذ لا يرون في ذلك سلوكاً حرجاً أو عصابياً. بل على العكس، فهم يؤكدون على أن الأوهام والخيالات الإيجابية مفيدة جداً لصحتنا النفسية والجسدية.

فإذا ما استطعنا أن نخفي أسرارنا عن أنفسنا، وأن ندرك الإيمان بذاتنا والخير في العالم، فإن حياتنا تغدو ليس فقط جديرة بأن تُعاش، بل نقي صحتنا النفسية والجسدية من الإنهاك الضار بها. فالأسرار التي تقينا من معرفة الذات المؤلمة تسهم إلى حد كبير في تحقيق سعادتنا.

Obeikan.com

7- الأسرار توفر حياة ثانية:

تقول الكاتبة مارغريت دو مور Margriet de Moor على لسان ماغدا الشخصية الرئيسة في روايتها «رمادي ثم أبيض ثم أزرق»: «لقد تأكد لي بأن هناك حياة أخرى قريبة من الحياة التي وجد فيها الإنسان بطريق المصادفة، يمكن للمرء أن يمارسها بطمأنينة وسلام كحياته العادية».

تركت ماغدا حياتها المترفة ذات يوم وغابت لمدة سنتين لم يسمع أثناءها، لا زوجها ولا أصدقاؤها عنها شيئاً. وعندما عادت بعد ذلك إلى منزلها قررت أن تصمت عن «ماغدا» الأخرى التي غابت قبل سنتين: «هل تغيرت؟ هل أصبحت أكبر سناً؟ أخ... في الواقع لا.

فالكل ستعرف علي، على شكلي وملابسي ونبرة صوتي... وما من أحد سوف يستنتج من تصرفي، بأن عينيّ تريان بوضوح أكثر، وبأنني قادرة على تقدير المسافات والرؤية في الظلمة. وعندما أجلس وأقرأ الجريدة، أو عندما أدعو الأصدقاء إلى الطعام، فمن منهم سوف يشعر بالضيق عندما أنظر بين حين وآخر إلى مشهد لا يعرفه إنسان غيري وأسترجع إلى ذاكرتي أشياء يسعدني تذكرها، أشياء شخصية أعتز بها وأخرى بربرية لا يمكن أن أشارك بها أحداً مهما كان».

حياة أخرى! من منا لا يرغب بها بين حين وآخر؟ والسؤال الذي يلحّ على كل إنسان في مرحلة ما من مراحل حياته هو: هل سيكون أكثر سعادة مع شريك آخر أو مهنة أخرى أو في مكان آخر؟

obeikan.com

إن روتين الحياة اليومية والضغوط والهموم، وكذلك الملل، كل ذلك يجعل جوانب الشخصية الذاتية المهضوم حقها، التي لم تتح لها الحياة، مؤلمة على نحو واضح.

عادة ما ندفن الشوق إلى حياة أخرى عميقاً في داخلنا، وقلما نتحدث عنها مع الشريك أو مع صديقة مقربة، وأحياناً نعلن عنها أثناء العلاج، ولكن غالباً ما لا نجد الجرأة للإفصاح عن هذا الشوق؛ لأنه لو استسلمنا لأصبح من الممكن أن يكون أمن حياتنا القادمة مهدداً، ولكان علينا أن نبدأ مجدداً الذهاب إلى المجهول دون شبكة واقية ودون ملاذ سري.

وخوفاً من التغيير يتصالح أكثر الناس مع نهج الحياة الذي اختاروه، لكن بعضهم لا يريد أن يدفن أحلامه على نحو كامل أو أن يعيشها أحياناً فقط في الخيال. إنهم لا يرغبون في التخلي عن رغباتهم واحتياجاتهم التي لا يجدون لها حيِّزاً في حياتهم الاعتيادية. وبذلك يبحثون عن إمكانية إيجاد مجال للجوانب المهضوم حقها، حتى لو كانت غير متوافقة مع حياتهم اليومية ومع الشريك الحالي، ومع المهنة أو المركز الاجتماعي. هؤلاء الناس يعيشون بمساعدة الأسرار حياة جديدة بالإضافة إلى حياتهم الرسمية.

وقد سبق أن دعت هذه الوظيفة للأسرار، منذ عام 1908، عالم الاجتماع جورج سيمل للاحتفاء بها بوصفها: «أعظم إنجاز للإنسانية». فقد عدّ أنه عبر السر يتم التوصل إلى «توسع هائل للحياة؛ لأن الكثير من مضامينها لا يمكن أن يظهر بكل علانية». فالحياة الثانية توفر المجال لتجريب الأشياء الجديدة واختبار اتخاذ القرارات القائمة وتحرير

المشاعر المكبوتة والكشف عن الجوانب غير الفاعلة في الشخصية الذاتية. فمن لديه سر يعيش -حسب سيمل- حياة ثانية إلى جانب حياته الظاهرة. ولكن ما الهدف من حاجتنا إلى حياة ثانية بالإضافة إلى تلك التي تحياها علناً؟ أما لدينا من المشاغل ما يفيض عنا في الحياة الأولى؟ ألا تغمرنا هذه الحياة حتى قمة الرأس؟ إنه غالباً السبب الذي يجعل الحياة الثانية -بالإضافة إلى الأولى- أمراً مفيداً؛ ولأن الحياة الأولى غير مصانة من النظرات الفضولية ومن النصائح والمطالب والتوقعات والحاجات الغريبة، يمكن للحياة الثانية التي لا يشارك فيها أحد، ولا يستطيع أحد الولوج إليها إلا بإذن، أن توفر الملاذ في بعض الأحيان.

في الحياة الثانية مسموح للمرء أن يكون كما هو بالفعل، يمكنه أن يعيش جوانب قد تصطدم في الحياة الأولى بالاستقباح والاستنكار، أو يمكن ببساطة أن لا يجدها إلا بهدوء وبين فترات متباعدة، التي لا مكان لها في الحياة اليومية العادية. ويمكن تنشيط هذه الحياة الثانية بوسائل مختلفة جداً، فبعض الناس يبيحون لأنفسهم في حياتهم الثانية علاقة حب جديدة، وبعضهم يحققون في عالمهم الثاني رغباتهم الجنسية التي لا تتناسب مع نظم الحياة الأولى، وبعضهم الآخر يريد مجرد أن يكونوا أشخاصاً آخرين لمدة مؤقتة ويتسللون إلى داخل الإنترنت بدور جديد، وآخرون يؤمّنون لأنفسهم نوعاً من الملاذ في الحياة الثانية، ينهلون منه القوة لمواجهة أعباء الحياة الأولى.

إن السر الذي يعرفه الكثير من الناس، حتى لو ليس من خبراتهم الذاتية، بل مما يرويه الآخرون، هو الحب غير المعلن. هنا يمكن أن

ينطبق الكلام على «الحياة الثانية» كل الانطباق لأن من يحبون في السر يمارسون في عدد غير قليل من الأحيان حياتين كل منهما منفصلة عن الأخرى، كل الانفصال.

الحياة الثانية: حب في السر:

«عليك بالسرية التامة» هذه آخر رسالة كتبها تشارلز ليندبيرغس Charles Lindberghs إلى عشيقته الألمانية بريجيته هيسهايمر قبيل وفاته. لقد طلب من أم أطفاله الثلاثة، أستريد وديرك ودافيد، التي لم تربطه بها علاقة زواج رسمي، أن تبقي على علاقتهما في سرية مطلقة. فانصاعت لطلبه وصمتت. بقي الأمر سراً حتى عام 2003، عندما كشف الأبناء، الذين أصبحوا رجالاً، سر نشأتهم.

لقد أثبتوا من تحليل DNA بأنهم من صلب ذلك الطيار الأمريكي. عندها انكشفت للرأي العام الحياة المزدوجة لهذا الرجل مع عدة نساء رزق منهن سبعة أطفال غير شرعيين؛ لأنه أحب ليس فقط بريجيته من ميونيخ، بل أحب أيضاً أختها ماريتا وسكرتيرته الخاصة الألمانية فاليسكا.

عاش الطيار الشهير عدة عقود من الزمن (منذ منتصف الخمسينيات حتى وفاته عام 1974)، حياة مزدوجة بكل المعايير لم يكن أحد على علم بها إلا هو وعشيقاته. فلا المؤلفون الذين كتبوا سيرة حياته ما مجموعه 14 مرة، ولا حتى زوجته الشرعية آنا مورو، ساورتهم يوماً ما أي شكوك حول حقيقة حياته. بالرغم من أنه كان قد كتب 150 رسالة حب إلى بريجيته هيسهايمر فقط.

obeikan.com

لم يعش ليندبيرغس مجرد حياة مزدوجة خاصة، بل كان أيضاً يعمل في السر في مجال الاستخبارات. فبتكليف من الحكومة الأمريكية والجيش الأمريكي كان يتجسس على سلاح الملاحة الجوية الألمانية وأبحاث الصواريخ. وكان مشاركاً في برنامج لتطوير السلاح ويستطلع قواعد القاذفات الأمريكية في كل أنحاء العالم. كانت وظيفته الرسمية هي ممثل ومدير شركة الطيران الأمريكية «بان أمريكان». بالنسبة للصحفي رودولف شروك الذي وضع كتاباً عن الحياة السرية للطيار ليندبيرغس كانت تلك شروطاً مثالية «كانت أموره لدى الحكومة الأمريكية وشركتي أيرفرانس وبان أمريكان مترابطة. كان بإمكانه في كل وقت من الليل والنهار أن يركب أي طائرة أمريكية إلى أي مكان يختاره في العالم وفي الدرجة الأولى ومجاناً».

وكذلك أيضاً المهندس المعماري الشهير «لويس كان» Louis Kahn كان عنده ثلاثة أطفال من ثلاث نساء وكان يعيش ضمن هذه الأسر الثلاث. ولم تعلم أي من نسائه عن وجود نساء أخريات في حياته إلا بعد أن توفي.

بينما من جهة أخرى لم يكن سراً بكل ما في الكلمة من معنى بأن الرئيس الفرنسي بين عامي 1981 - 1995، فرانسوا ميتران قد أسس أسرة ثانية مع آنا بينغو وابنتهما مازارين. وكانت زوجته وكذلك حزبه على علم بذلك، لكن دون علم الرأي العام.

وانتهت في بداية عام 2007، حياة مزدوجة دامت عدة سنوات لأحد ساسة ألمانية الاتحادية عبر تقرير نشرته بيلد تسايتونغ Bild- Zeitung نهاية غير متوقعة.

بكل تلذذ نشرت الصحيفة بأن للأب المتزوج منذ أكثر من عشرين عاماً وعنده ثلاثة أبناء، عشيقة منذ ثلاث سنوات يعيش معها في مسكن صغير. فعندما يعيش الناس حياة مزدوجة مع شريكتين أو أكثر نرانا متشوقين وفضوليين للأمر. كيف يمكنهم ذلك؟ كيف يستطيعون تأسيس عدة أسر دون أن تدري أسرة بوجود الأخرى؟

إن السير العديدة التي كتبت عن حياة الطيار «ليندبيرغس» أو «لويس كان» أو «فرانسوا ميتران» تلقى اهتمامنا، ليس لأن الأمر يتعلق بشخصيات بارزة، بل ربما لأنها تصيب الوتر الحساس. ربما كان للمرء نفسه علاقات خارج نطاق الزواج ويعرف السعادة المرتبطة بذلك، وكذلك أيضاً الأعباء المترتبة عليها. ربما حلم المرء نفسه ذات يوم بمثل هذه الحياة المزدوجة، لكنه جفل من تحويل ذلك إلى حقيقة.

ربما بدت للمرء حياته الغرامية جافة ولا مستقبل لها. عندما تهدد الحياة اليومية المرء بالتهامه، وعندما تصبح حياة الوحدة اليومية مجرد روتين وملل، وعندما ينتفي وجود الدوافع والمنظور الشائق للمستقبل، عندها يفكر المرء بالتغيير.

ماذا لو. . . مغرية هذه التلاعبات بالأفكار. فعندما يسمع المرء أو يقرأ عن أناس يحققون رغباتهم في السر، ربما يتحمس. ألا يمكن لحياة ثانية -دون ان تشكل خطراً على الحياة الأولى- أن تكون الحل الأفضل لمثل هذه المشكلة؟ الحفاظ على ما هو قائم بالإضافة إلى إشباع الرغبات التي لم تتحقق بعد؟

توصلت كل من لوسي فونتين وجيني فلارتي عبر استجوابهن للسيدات الأربع اللواتي تم الحديث عنهن سابقاً إلى الاستنتاج الآتي:

«يبدو وكأنهن ينفذن متطلبات علاقة معينة، لكنهن في الوقت نفسه يردن خرق هذه المتطلبات. يتيح لهن سرهن البقاء في علاقة، بينما في الوقت نفسه يرتبطن بعلاقة أخرى، أو يعشن مظهراً آخر من مظاهر حياتهن يعددنه مهماً بالنسبة لهن، لكنه يبدو لهن متعارضاً مع حياتهن الأخرى، بحيث يحافظن على علاقتهن السابقة ويقمن باستغلال أوقات الفشل لاختبار حياتهن الأخرى أو لحل مشكلتهن، لكن في كل الأحوال مع الإبقاء على حياتهن الحالية».

طبيعي أن تثير مثل هذه الحجج تناقضاً، فمثل هذا المطلب يبدو في غاية الأنانية وغير أخلاقي على الإطلاق كحياة الطيار ليندبيرغس أو ميتران. ففي النهاية تُمارس الخيانة والكذب على الشريكة الدائمة عن طريق مثل هذا «الحل». فحياة تقوم على الكذب لا يمكن أن تكون حلاً. مع ذلك فإن هذه الحلول موجودة، ووجودها ليس بالأمر النادر كما تثبت وقائع الحياة اليومية. ويذكر المحلل النفسي ولفغانغ شميدباور Wolfgang Schmidbauer وهو من المتعاطفين مع الحب السري الحادثة الآتية:

× مثال: إحدى النساء اللواتي يتلقين العلاج عنده تعيش مع زوجها حياة زوجية في نهاية الأسبوع فقط. عندها عشيق منذ عدة سنوات. يوفر لها زوجها الأمن والاستقرار أما عشيقها -وهو متزوج أيضاً- فيشبع رغباتها الأخرى بالتغيير والإثارة والممارسة الجنسية. وبالرغم من أن العشيق يريد الزواج منها إلا أنها لا ترغب بإنهاء حياتها المزدوجة. ومع أنها تحبه كثيراً

إلا أن بعض خصاله لا تعجبها، فهو ذو شخصية مسيطرة وقاسية. وهي لا تريد التضحية بالإثارة الجنسية من أجل الحياة اليومية العادية. رأت نفسها ذات يوم حاملاً لكنها لا تعلم من أي منهما جاء الحمل، وعندما وضعت وليدها اعتبر زوجها أنه أب للطفل، أما العشيق فيعرف أنه بنسبة 50% قد يكون هو والد الطفل. وبالرغم من وجود الطفل استمرت في حياتها المزدوجة.

هل هذا السلوك مستنكر؟ يحذر المحلل النفسي شميدباور من الاستنكار السريع لسلوك هؤلاء المحبين بالسر. لكن من البديهي أن يعترف بأن من الأفضل والأجمل أن يقتصر حب شريكين على بعضهما ويشعران معاً بالسعادة التامة. «وفي الدرجة الثانية هو أن يعمد الشريك المحب الذي يشعر بالسعادة؛ لأنه يحصل من مكان ما على مالا يستطيع الحصول عليه مني. وفي الدرجة الثالثة هو الحب لكن غير السعيد. أما الأكثر سوءاً فهو الشريك الذي لا يشعر تجاهي بأي حب البتة ويشكو التعاسة دون أن يكون قادراً على الحصول على ما يمكن أن يشبع رغباته».

وحسب هذه الحجج يمكن أن يكون حتى في صالح الشريك الدائم أو الشريكة، عندما يحاول الطرف الآخر، أن يحل أزمة عدم إشباع رغباته عبر علاقة خارجية.

لكن هذا المنحى من التفكير لا يروق إلا للقلة، حتى لو لا يكون مستبعداً كل الاستبعاد. ولو وضع المرء كل المحاذير الأخلاقية المكبوتة جانباً فسيتبين أن للحب الذي يمارس في السر نواحيه الجيدة بالنسبة لمن «لا يضنّ به على نفسه» التي لا تصنيف لها في خانة «الأنانية». فالحب في الخفاء يوفر، في حالات معينة، فرصاً للتطور لن يكون توفرها من دونه ممكناً.

obeikan.com

الحب الخفي يسترجع الحرية المفقودة: «يرى العشيق السري والعشيقة السرية بأنه في فترة العشق السابق قد تم البوح بالكثير. وحيث كانت الحرية سابقاً، يمارس الآن شريك الضحية المتحمسة آنذاك سلطة يصعب عليه أن يتخلى عنها». هذا ما يقوله ولفغانغ شميدباور عن الفائدة التي يمكن أن تحققها علاقة خارج نطاق الزوجية.

أيضاً «هورست» يعتقد بأنه وقع في حب امرأة ثانية لأن زوجته لم تترك له مجالاً للتنفس. فبعد عشرين سنة من الزواج يتمتع الآن بالحرية غير المعهودة التي منحه إياها الحب الخفي.

مثال: كانت زوجتي تقول لي دائماً: أنا الوحيدة التي تعرفك. إنني أعرفك أكثر مما تعرف نفسك. والسيّئ في الأمر أنها محقة إلى درجة معينة. فقد تبين لي من خبرات السنوات التي مضت على زواجنا بأنني لم أخف عنها أي شيء على الإطلاق. كانت تتقدمني دائماً بخطوتين إلى الأمام. لم تكن لي حياة خاصة بي لأنها هي كانت تقرر حياتي. وكان هذا هو السبب الذي جعلني أتفجر. أردت أخيراً أن أعيش مع من يمكن أن أكون بالنسبة له شخصاً جديداً وجذاباً وغريباً. كما أردت أن أبرهن بدوري بأنني قادر على إخفاء شيء عن زوجتي.

إذن هورست فقد الإحساس بنفسه؛ لأن زوجته كانت تفكر وتتصرف عنه. لقد تمرد على حياة يواجهه فيها خطر فقدان هويته. وعلى مدى السنوات التي مضت على زواجه تخلى إلى حد كبير عن شعوره بالـ «أنا» وخضع لشعور «نحن» مع شريكته.

obeikan.com

وتحت ضغط الواجبات التي تتطلبها الحياة اليومية وروتين حياة الحب وتوقعات محيطه، لا يبقى للفرد غالباً أي مجال يمكن أن يحقق فيه ذاته. أين ذهبت العفوية والحيوية والطيش التي كانت في السابق؟ ماذا دهى الشابة التي كانت تأتي على قدمين حافيتين وهي مفعمة بالحب مجتازة المسافات؟ أين اختفى ذلك الشاب الذي كان قادراً على أن يتحدث لياليَ طويلة بموضوعات الحياة الكبرى بكل حماس؟

إن الحب الخفي يوفر للشخص «المجال الحر المنشود، إمكانية أن يعيش شيئاً جديداً أو يعيد إحياء ذكريات قديمة» حسب شميدباور.

وفي الوضع المثالي يعود العاشق الخفي «نشيطاً، منبسط الأسارير، إلى المائدة المشتركة وإلى السرير المشترك، مقتنعاً بأنه كلما خف تعذيب الشعور بالذنب وكلما كان مقتنعاً من أعماق قلبه بأن ما يفعله هو الذي يقرره وهو الوحيد المسؤول عنه».

الحب الخفي يوفر الملاذ الآمن: أحياناً تكون الأسباب الأخلاقية هي التي تردع المرأة أو الرجل عن الانفصال. ربما كانت هناك عقبات مهنية (كوجود شركة أو مؤسسة يشتركان في ملكيتها أو وجود أطفال، أو الحالة المادية) تحافظ على بقاء الزوجين معاً. ربما لا يحدث الانفصال، بل يظل الزوجان يعيشان إلى جانب بعضهما، وليس مع بعضهما. وفي هذه الحالة تبقى الحاجات إلى الألفة والمودة والتلاقي الجسدي غير مشبعة، الأمر الذي ينغص حياة الإنسان على المدى الطويل. فإذا ما أقدم المرء حيال هذا الوضع على حياة ثانية- مع رجل آخر أو امرأة أخرى- يصبح لديه مكان يمكن أن يلجأ إليه، ويجد فيه مالا توفره له حياته الأولى، يمكنه أن

ينهل منه القوة ويحصن نفسه بالحب السري ضد الصعوبات اليومية في حياته الأولى. وعبر الحياة الثانية يخف، إلى حد واضح، عبء عدم فك العلاقة القائمة في الحياة الأولى، التي تعود لتصبح محتملة، حتى إنها تتحسن باستمرار.

الحب السري يوفر الأمان: من الممكن أن يفضل بعض الذين يمارسون حياة مزدوجة أن يستقروا على حياة واحدة. لكنهم لا يستطيعون ذلك لأسباب ربما تكمن في طفولتهم الأولى؛ إذ ينقصهم الأمن والطمأنينة أو الاستعداد للاختلاط الكلي مع إنسان آخر. فمن أجل «الأمن» يجعلون لأنفسهم حياة ثانية. وقد أوضح فولفغانغ شميدباور هذا الأمر عبر مثال عن امرأة تخون زوجها، حيث يقارن حالتها بحالة فلاح أثناء حرب الثلاثين سنة. «إنها تخاف الهجران وخسارة كل شيء. فتأسيس حياة ثانية لها مثل الفلاح الذي بنى لنفسه منزلاً ثانياً منعزلاً في أعماق الغابات أثناء حرب الثلاثين سنة ليؤمن له ملاذاً آمناً عندما يدمَّر منزله الأول في القرية».

ماريانا أيضاً عاشت حياة ثانية لأسباب تتعلق بأمن حياتها، لكنها لم تكن تدرك ذلك. فهي المرأة المتزوجة منذ 15 عاماً التي أقامت علاقة سرية مع أحد زملائها قبل أكثر من سنتين. لقد عانت كثيراً هذه الحياة المزدوجة وبحثت عن معالجة نفسانية تساعدها على اتخاذ القرار، لكن النتيجة كانت مختلفة كما تقول:

مثال: لم تهتم المعالجة النفسانية -وكما توقعت- بموضوع الرجلين - الزوج والعشيق فقط- بل تركتني أحكي لها أولاً بالتفصيل عن تورطي

obeikan.com

العاطفي، الأمر الذي أحرجني جداً. لكنها سألت بعد ذلك عن أهلي وأصلي وطفولتي. وأثناء الحديث، أصبحت لحادثة جرت في حياتي السابقة أهمية كبيرة، فعندما كنت في السادسة من عمري أدخل والدي السجن لمدة سنتين بسبب جنحة غش صغيرة، كان لها أثرها البالغ على عائلتنا. كان علينا الانتقال من حي راق من أحياء المدينة إلى منطقة تسكنها الطبقة السفلى. فدخلت إلى مدرسة أخرى وأصبحت تلميذة كسولة. لقد فقدنا كل ما كنا قد حصلنا عليه: المال والسمعة والمركز الاجتماعي والأصدقاء. كانت أسرتنا الصغيرة معزولة. لم يعد أحد يريد أن يعرف عنا شيئاً أو يتعامل معنا. ولم يتحسن الوضع حتى بعد خروج والدي من السجن. لم يعد يجد عملاً فقامت والدتي بالعمل في تنظيف بيوت الآخرين، ثم أصيبت بالسرطان وماتت عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري. أعتقد أنني كنت ما زلت أتذكر تلك الأحداث جيداً. اتخذت لنفسي طريقاً، ولكن ما لم يتضح لي إلا أثناء العلاج هو أن هذه الأحداث قد زادت من حاجتي القوية إلى الأمن. وأصبح عندي الشعور بأن على المرء أن لا يتكل على أي شيء أو أي إنسان. ولذلك لم أتكل طوال حياتي حتى هذه اللحظة إلا على نفسي. وإذا ما جعلنا ذلك ينسحب على مسألة زواجي فإن ذلك يعني أنني لم أشأ أن أتكل على زوجي. وكنت أخشى أن تتبخر حياتنا يوماً ما في الهواء. ولم اشعر بالأمان إلا عبر حب زميلي لي. نعم شعرت عندها بالأمان. استطعت أن أمارس الرقص على حبل الحياة مع رجلين ضمنا لي التوازن. فإذا ما بدا لي تردد أحدهما بقي لي الآخر، وبالعكس.

لقد أدركت ماريانا أثناء العلاج لماذا مارست حياة مزدوجة، ولم يكن من السهل التخلص من ذلك. فالحياة السرية تزيد من أمنها واطمئنانها وتقلل من خوفها من الضياع. فإذا ما فشلت علاقة من الاثنتين بقيت لها الأخرى.

وربما كان الطيار شارلز ليندبيرغس رجلاً يعذبه الخوف من الضياع، لا ندري. لكن من الجدير بالتفكير فيه هو أنه كان يحتاج إلى عدة مساكن وأطفال من عدة نساء من أجل الاستقرار على أرض صلبة.

من البديهي أن ذلك ليس حلاً دائماً أن يقوم إنسان تلاحقه المخاوف من الضياع، أو أي مشكلات أخرى، بالسيطرة عليها عبر اللجوء إلى حياة ثانية. لكن يمكن أن يكون ذلك خطوة أولى نحو المزيد من الاستقرار والثقة بالنفس.

فالحياة الثانية تتيح إمكانية تعرّف الاستقلالية، وتقلل من ثمّ الخوف من الهجران والفشل. ومع الأيام يمكن لإنسان يمارس حياتين، لأسباب تتعلق بأمنه واستقراره، أن يتخلى عن واحدة منهما. وهذا يتم عندما يصبح قوياً بما فيه الكفاية، ويكف عن الشعور باليأس.

وهكذا وصفت تلك السيدة المتزوجة التي لم تعد تحب زوجها للباحثين فيرت وفلارتي الحالة الآتية: «شعرت وكأنني على شفا حفرة كبيرة قاتمة لا قرار لها ودب ضخم أسود يهاجمني. ولم أكن أدري ماذا ينتظرني فيما لو هربت. لكن كنت أعلم أيضاً بأن الأمر لن يختلف فيما لو سقطت في الحفرة أو بقيت على ما أنا عليه. أحياناً كان ينتابني الشعور بالانتظار. استطعت الهرب وظننت بأنني كنت جريئة على نحو لا يمكن تجاهله، للوقوف في وجهه. ومع مرور الزمن شعرت بأنني أصبحت أقوى».

وكذلك المرأة السحاقية التي لم تصرح لوالدتها بحقيقة مشاعرها الجنسية تحدثت عن نمو قدرتها. فقد شعرت -بالرغم من كل إحساسها بالذنب- أيضاً بالقوة والجرأة. واستطاعت أول مرة أن تقف في وجه والدتها. ومع أنها أسفت لأنها لم تصل إلى هذه الاستقلالية إلا عن طريق سر، إلا أنه كان الفصل الأول في المقاومة ضد الرقابة الزائدة.

فمن يقرر أن يقيم حياة ثانية فإنه قلما يبقي على هذا القرار مدى الحياة كما فعل الطيار شارلز ليندبيرغس. فغالباً تبقى الحياة المزدوجة قائمة إلى أن يصل المرء إلى قرار يراه صائباً، أو تنتهي مرحلة مهمة من مراحل التطور.

أما مدى أهمية وجود «حياة ثانية» بالنسبة للكثير من الناس فلا تظهر فقط عبر المحبين السريين. فبأساليب أخرى أيضاً يحاول بعضهم أن يعيشوا بهوية أخرى، أو على الأقل يخرجون مؤقتاً من نمط الحياة المألوفة. فكثيراً ما يشبعون هذه الرغبة باللجوء إلى شبكة الإنترنت.

حياة ثانية تصبح فيها شخصاً آخر:

غالباً مالا تتوافر للمرء في الحياة العادية إلا إمكانات قليلة للتغيير. حيث يبدو كل شيء محدداً المهنة وشريك الحياة والأسرة والبيت والأصدقاء ووقت الفراغ. والحياة تمضي دائماً على وتيرة واحدة. والقلق الذي يلحظه المرء عند السؤال: هل كان هذا كل شيء؟ ليس سببه غالباً الرغبة بتغيير جذري في نمط الحياة. فغالباً ما يتعلق الأمر بمجرد إمكانية قدرة الإنسان، على الأقل بين الحين والآخر، على الخروج من جلده، أن يصبح إنساناً آخر، وهذه الفرصة يتيحها الآن الإنترنت.

وجهت عالمة الاجتماع في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا شيري توركل Sherry Turkle أسئلة لـ 200 مستخدم للعبة الإنترنت المسامة The Sims حول سحر هذه اللعبة. لقد جعلت هذه اللعبة من الحياة الحقيقية موضوعاً لها؛ لأنه يمكن للاعبين، وحسب ما يفضلونه، التعامل مع عائلة سيم Sim. لديهم الحرية في إضفاء ملامح شخصية على أفراد هذه العائلة. يجهزون لهم المساكن، ويجدون لهم الأصدقاء، ويعطونه المهن التي يرغبون، ويذهبون معهم للتسوق. وعندما يبعثون الحياة في أفراد عائلة «سيم» يمكن للمرء أن يراقبهم كيف يشقون طريقهم. ويمكن للمرء أيضاً أن يتحكم بمصيرهم. والشيء المتع في ذلك أن هؤلاء الناس الافتراضيين يتحولون إلى ممثلين للاعبين أنفسهم. ودون الإقدام على أي مخاطرة يمكن لهؤلاء أن يجربوا حياة بديلة. ماذا سيكون لو. . . . مثل هذه الأفكار يمكن للاعبي الحاسوب أن يدعوا شخصيات اللعبة تجربها. ماذا يمكن أن يكون لو كنت أكثر جاذبية وغير متزوج؟ ماذا يمكن أن يكون فيما لو كنت غنياً؟ ماذا يمكن أن أكون فيما لو لم أكن امرأة، بل رجلاً (أو العكس)؟.

يمكن للاعبين أن يعيشوا رغباتهم وتخيلاتهم عبر عائلة سيم وملاحظة ماذا يجري. فإمكانية أن يجرب المرء حياة أخرى، واتخاذ هوية أخرى، وتجربة أدوار جديدة، هي التي تشكل النجاح الهائل للعبة الحاسوب هذه.

يكوّن اللاعبون لأنفسهم أسرة، كما كانوا يريدون دائماً، ويجعلون فيها لهم إخوة وأخوات غير موجودين أصلاً، ويخلعون على أفراد الأسرة

المفترضة صفات شخصية ماجنة، كانوا يرغبون بها أصلاً. باختصار إنهم يجربون، باستخدام شخصيات أسرة سيم، حياة أخرى دون الخوف من أي نتائج مترتبة على مثل هذا السلوك.

وعلى غرار لعبة The Sims هناك لعبة أخرى تحمل الرسالة المغرية حتى في اسمها وهو «حياة ثانية» Second Life اخترعتها شركة Linden Lab للكمبيوتر في كاليفورنية وأصبح عدد المعجبين والممارسين لها الآن يقدر بعدة ملايين. يزداد هذا العدد أسبوعياً بمعدل /100/ ألف لاعب جديد.

في لعبة «الحياة الثانية» يخترع اللاعبون نوعاً من «الأنا» مستلهمة من التراث القديم مثل أفاتار Avatar[2] أي القرين. وهذه «الأنا» الثانية «تنفذ» الأوامر الخاطفة السريعة «للأنا» الأولى. وهذه يمكنها أن تزود قرينتها بكل ما لا يتوافر لها في الحياة الحقيقية: عضلات، ثياب فخمة، قد رشيق، بيت الأحلام، أصدقاء موثوقون وربما أيضاً جنس آخر. وكما ظهر من الاستبيان يتجلى قرين 27% من النساء في رجل وقرين 8% من الرجال في امرأة. وفي لعبة «الحياة الثانية» يمكن لكل فرد أن يعيش أحلامه ويأخذ استراحة من الحياة اليومية الواقعية الأقل إثارة. وإلى جانب ذلك يمكن للمرء في هذه الحياة الثانية أن يصبح غنياً. فمن يتعامل بإتقان مع عمله «الحياة الثانية» وهي «ليندن دولار» يمكنه حتى إن يحقق لنفسه حلم أن يصبح مليونيراً.

يقضي اللاعبون وسطياً 15 ساعة في الشهر في «حياتهم الثانية» وبعضهم أكثر من ذلك. وثلث عدد اللاعبين الذين تزيد أعمارهم عن

21 سنة يقضون في العالم المفترض وقتاً أطول من الوقت الذي يقضونه في مكان عملهم الحقيقي.

إن السحر الذي تتسم به هاتان اللعبتان على الحاسوب The Sims وSecond Life يدل على الشوق الكبير لدى بعض الناس إلى حياة أخرى. أي إلى حياة ثانية. فالحاجة إلى تبديل الهوية، إلى تحرر مؤقت على الأقل من الضغوط الحقيقية، وإلى «أنا» أخرى، كبيرة جداً. وينطبق ذلك بشك لخاص على أولئك الذين يعانون في حياتهم الواقعية. وهم الأشخاص الخجلون والمتخوفون والمتحفّظون. فهؤلاء يجدون في شبكة الإنترنت مالا يجرؤون عليه في الحياة اليومية الواقعية. إنهم يصبحون حازمين ويخرجون عن طبيعتهم، وهذا ما أثبتته على سبيل المثال دراسة بريطانية. حيث أجرى العلماء اختباراً للشخصية على مستخدمي الإنترنت تتراوح أعمارهم بين 18 – 62 سنة. ثبت لهم فيها بأن قسماً منهم لديه شعور ضعيف جداً بالقيمة الذاتية. هؤلاء بالضبط هم من يرتاحون لشبكة الإنترنت، فهنا لا يرون أنفسهم محرجين، وقلما يهتمون بما يفكر الناس عنهم. «في الإنترنت أعبر للآخرين عن أشياء لا يمكنني مثلاً أن أخبر بها أحداً في حفلة ما». كما قال أحد أفراد عينة البحث. وقال آخر: «لدي علاقات عبر الإنترنت مع أشخاص ربما لن ألتقي بهم على الإطلاق». على شبكة الإنترنت يتصرف الناس على نحو يختلف عن تصرفهم في الحياة الحقيقية، ومن ثمّ يحصلون على خبرات مختلفة.

وعلى غرار العلاقة العاطفية خارج إطار الزوجية توفر الشبكة الدولية فرصة ممارسة «حياة ثانية إلى جانب الحياة المعلنة». فما

يمارسه الإنسان في العوالم الافتراضية، وكيف يتصرف، والهوية التي يضفيها على نفسه، يبقى سراً.

على شبكة الإنترنت لا يُعرف الشخص إلا عبر شخصيته الافتراضية، بينما في العالم الواقعي لا يعرف أحد عادة أي شيء عن «الأنا» الأخرى لديه، التي خلقها لنفسه. «أعتقد أن ما يفعله الناس الآن على الإنترنت له أهمية نفسية عميقة؛ بمعنى أنهم يستخدمون هويات مختلفة للتعبير عن مشكلات وتجريب إيجاد حلول لها دون تحمل أي تبعات مترتبة على ذلك». كما تقول شيري توركل مضيفة: «مثل هذا التبديل للهوية يوفر، على الأقل مؤقتاً، حياة آمنة في السر، يحصل منها الباحثون عن هوية أخرى على أفكار، وعلى القدرة لمواجهة الحياة الحقيقية، أو على فترة استراحة من أعبائها».

الحياة الثانية هي أن تستمتع برغبات «محظورة»:

«سيفرين سيريزي» ربة منزل باريسية شابة وجميلة وزوجة الطبيب «بيير» تحب زوجها لكن لا يمكنها أن تنسجم معه جسدياً. وبدلاً من ذلك تستسلم للخيالات المثيرة والماسوشية إلى حد ما، والمبهمة، من أجل إشباع رغباتها الجنسية. أخيراً تحولت إلى داعرة تعمل في مؤسسة للدعارة أثناء ساعات بعد الظهر، بينما تظهر أثناء ساعات قبل الظهر لزوجها بأنها عقيلة الطبيب الفاضلة والعفيفة. وبصفتها «حسناء النهار» Belle de jour فقد سحرت أثناء خدمتها في ساعات بعد الظهر الموظف في البوليس الجنائي مارسيل هنري، صديق زوجها، الذي سبق أن اشتهى سيفرين جنسياً.

Obeikan.com

سيفرين سيريزي هي بطلة رواية، خلقها المؤلف جوزيف كيسل واشتهرت عبر تحويلها إلى فيلم سينمائي للمخرج الإسباني لويس باينول جسدت فيه كاترين دونوف الدور المزدوج للسيدة سيريزي. هل هي شخصية متألقة الألوان غير موجودة في الحياة الواقعية؟ إن من يعتقد بأن مثل هذه الكائنات المزدوجة ليست موجودة إلا في مخيلة كاتب روائي، لهو مخطئ. لأن أشخاصاً حقيقيين يمارسون حياتهم أحياناً في مجالين يختلف كل منهما عن الآخر كل الاختلاف. وجوزفين خير مثال على ذلك:

مثال: جوزفين متزوجة وتعمل رسامة في حياتها العادية، أما في حياتها الأخرى فتُضرب وتضرب، وتُذل وتذل. جوزفين تحب السيطرة. تعذب زبائنها بملاقط الغسيل وتلفهم بأكياس النايلون التي تحفظ فيها المواد الغذائية لتخزينها في البرادات. يأتي إليها الساديون والماسوشيون. يعيشون أسرارهم عند جوزفين وتعيش جوزفين أسرارها معهم.

اكتشفت ولعها بالألم منذ أن كانت في الخامسة عشرة من عمرها. جربت ذلك على نفسها، إلى أي مدى تستطيع المضي في ذلك. فلاحظت الرغبة الجامحة في إذلال نفسها وإذلال الآخرين.

ولجوزفين القدرة على ممارسة حياة مزدوجة من دون إشكالات. زملاؤها لا يعرفون ذلك، فهي محبوبة وتقوم طواعية بساعات عمل إضافية تختفي بعدها في الأستوديو وتجعل زبائنها يتلوون ألماً من القيود وربطهم بالكلاليب والجنازير. ومساء تلوح بالكرباج وعند الصباح تعود للجلوس بكل هدوء إلى الحاسوب.

obeikan.com

جوزفين لا تستطيع التخلي عن أي من حياتيها: للهدوء والأمن والطمأنينة في عالمها العادي أهمية التوتر المشوب بالرغبة الجامحة نفسها في حياتها السرية. تكسب المال الكثير من زبائنها بحيث تعيش منه حياة مترفة، لكن في هذه الحالة لا يبقى عالمها إلا نصف عالم. فهي بحاجة إلى حياتين بآن واحد لتشعر بالسعادة. ولا تريد التخلي عن أي منهما.

حياة ثانية أخرى في منتهى السرية يعيشها القاضي الذي قدم نفسه باسم جوبكاتون إجابة عن إعلاننا تحت عنوان «البحث عن أسرار». ويبدو من حكايته أيضاً أن لبعض الناس إمكانية أن تكون لهم كينونة رسمية تختلف كل الاختلاف عن حياة أخرى سرية يمارسونها.

مثال: أحب ارتداء التنانير جداً. بدأ معي ذلك في سن الثانية عشرة. كان في غرفتي آنذاك خزانتان للملابس. في واحدة منها ملابسي (الجاكيت والبنطلون). وفي الأخرى كانت تنانير والدتي معلقة. ومن قبيل الفضول قمت ذات يوم بارتداء تنورة تشبه تلك التي يرتديها رجال «سكوتلاندا» وكنت وحيداً في الغرفة. ثم قمت بعد ذلك بتكرار هذه الفعلة باستمرار.

حتى عندما انتقلت للسكن في المدينة الجامعية أثناء دراستي لم تفارقني هذه الرغبة. ففي عشية العطلة الدراسية أو عشية سفري إلى أهلي في نهاية الأسبوع كنت أفكر وأنا في سريري بكل السرور: أي تنورة سأرتدي عندما أعود إلى البيت؟

أول تنورتين لي اشتريتهما بنفسي قبيل البدء بدراستي الجامعية. وقبلها كنت أنتقي تنوراتي من تلك التي كانت والدتي تصنّفه كملابس قديمة. وهكذا قمت بارتداء كل ما كان لوالدتي ولو مرة واحدة.

ولحسن الحظ لم يطلع والداي البتة على حياتي السرية هذه. والآن توفيا. فقط خزانة الملابس التي كنت أعيش قريباً منها أحياناً عندما كنت طالباً هي التي زادت من ولعي بالتنانير. أخيراً هي التي يسرت لي سبل الاختيار. وبالنسبة لسيدة كانت آنذاك فوق السبعين كان هذا العدد كبيراً جداً.

أنا الآن متزوج منذ ست سنوات ونصف ولا علم لزوجتي بهذا السر. وكل نحو أربعة أسابيع تسافر زوجتي لبضعة أيام في زيارة أختها. تكون هذه الأيام بالنسبة لي «أيام التنانير». أسافر إلى أماكن تبعد ما لا يقل عن 100كم عن المكان الذي أسكن فيه. وهناك أمشي وأنا أرتدي التنورة حيث لا يعرفني أحد.

حسن أن أصبح لدينا الآن خدمة الإنترنت والبريد الالكتروني حيث إنشأت لنفسي عنواناً يمكن أن أظهر فيه تحت اسم مستعار هو «جوبكاتوم» وأتبادل الرسائل مع معنيين آخرين. أما سبب اختياري لاسم جوبكاتوم فهو: أولاً اسم توم أو توماس هو اسم يحمله الكثير من الرجال. وباعتباري صديقاً للغة الروسية فقد أخذت منها اسم «جوبكا» أي التنورة. وعلى فكرة فأنا أعرف ترجمة كلمة تنورة في أكثر من عشر لغات.

إن ميلي للتنانير هو نوع من «القوة المضادة» فهذا السر يمنحني القوة. حيث يساعدني مثلاً على التخلص من ضغوط المهنة. فعقب قضية دعوى لم تكن موفقة كنت مرة في غاية الإنهاك. فأخذت استراحة وسافرت لمدة يومين بعيداً. وعندما ارتديت التنورة أثناء السفر شعرت بالارتياح.

أساساً استلهم القوة من حقيقة أنني استطعت أن أكتم ولعي بالتنانير لعدة عقود من السنوات. وكثيراً ما أفكر: عندي شيء يخصني وحدي مئة بالمئة، الأمر الذي يعدّ بالنسبة لي في غاية الأهمية.

وفي حالة أخرى كحالة «جوبكاتوم» أقدم رجل على البوح بسره استجابة للإعلان الذي نشرناه «البحث عن أسرار».

مثال: هل السر الذي احتفظ به هو سر رجل أو سر امرأة؟ هذا هو وصفي الذي طالما فكرت به جيداً لمشكلتي.

عمري 45 عاماً ومتزوج، عندي طفل وأعمل في المحاماة. بالنسبة للجميع (تقريباً) فأنا رجل منسجم كل الانسجام مهنياً واجتماعياً وعائلياً. اسمي كرجل «أوفه» وليست هناك أي مظاهر توحي بشيء آخر. ومن ناحية أخرى أعيش أوقاتاً من حياتي كامرأة، فيكون اسمي فيها «جوليا». لدي صديقات وأشارك في مجموعة هواة تهتم بالكتب. وأقوم برحلات يومية. . . وكل ذلك بشخصية امرأة. ولست أدري حتى الآن فيما إذا كنت حسب التعبير الفني الدقيق Transvestit[3] أو أنني نقطة تصالب بين الجنسين من حيث اللباس Crossdresser. إنني لست جنساً وسطاً يريد تغيير جنسه أو لدي القناعة بأنني يجب أن أكون امرأة بعد إجراء العمليات الجسدية المناسبة. فأنا رجل بجسد رجل لكن تنتابني حالة أشعر فيها بالحاجة إلى أن أعيش الجانب الآخر من نفسي وهي أنثوية واضحة.

كما يمارس «جيرد» أيضاً حياة سرية ثانية، فهو متزوج ويعمل مديراً لشركة متوسطة. لديه ميل بارز نحو جوارب النايلون واخترع طريقة يعيش

obeikan.com

فيها معاناته هذه دون أن يتعرض لخطر الازدراء من قبل الوسط الذي يعيش فيه.

مثال: سري هو أن النساء اللواتي يرتدين الجوارب المصنوعة من النايلون يثرنني على نحوقوي. فمجرد التفكير بهذه المادة الناعمة يحرك مشاعري. وحاجتي لهذه المادة تكون قوية جداً لدرجة أنني اقتنيت مجموعة كبيرة منها. وحيث يمكن للمرء التعامل مع الإنترنت باسم مستعار فلم يعد الحصول عليها يشكل مشكلة.

لقد لاحظت وأنا في سن الثالثة عشرة بأنني أعجب بالنساء اللواتي يرتدين الجوارب المصنوعة من النايلون. عمري الآن 37 عاماً، إذن أنا أحمل سري هذا منذ 24 عاماً. ولا أستطيع الحديث عن شهوتي هذه إلا مع معارفي عن طريق الإنترنت. مع أن زوجتي تعرف حبي للنايلون لكن لا يمكنني الحديث معها حول هذا الموضوع. وعليّ أن أخفي عنها مجموعة مقتنياتي من النايلون في مكان لا تصل يدها إليه.

لقد أصبح ميلي للجوارب سراً؛ لأنني فكرت وأنا في سن الصبا بأن سلوكي هذا غير طبيعي. وأما إخفائي هذا السر عن زوجتي فهو لأنني أحبها ولا أريد أن أفقدها. حتى ضمن دائرة معارفي لا يمكنني أن أتحدث عن مشكلتي، إذن لم يبق لي سوى كتمانها. وهذا مما يثقل علي جداً، لأنني أحس دائماً بحاجة إلى النظر إلى هذه المادة ولمسها. وعلي الانتباه والحذر من أن لا أقوم أثناء إحدى الحفلات أو المناسبات بتمرير يدي على ساق سيدة ترتدي مثل هذه الجوارب. وبالشوق نفسه لهذه المادة أقوم أحياناً بارتداء مثل هذه الجوارب لكن مع كل الحذر والخوف من أن

Obeikan.com

يلحظ أحد فعلتي هذه. أحياناً يكون شوقي كبيراً لدرجة أنني أرتدي مثل هذه الجوارب وأذهب بها إلى عملي.

«غيرد» تثيره جرابات النايلون ولجوبكاتوم ولع خاص بالتنانير و«اوفه» يحب أن يتحول أحياناً إلى جوليا. أما بالنسبة لجوزفين فأمرها ضرورة حياتية.

الأربعة لا يريدون البتة التخلي عن إمكانية وجود حياة أخرى إلى جانب حياتهم العادية. ولأن لبس النايلون أو التنانير بالنسبة للرجال غير وارد على الإطلاق في مجتمعنا، ولأن الناس الذين يشعرون بالسعادة في العيش بجنسين سرعان ما يوصفون بأوصاف غير لائقة، فإنهم مضطرون لكبت ميولهم وأهوائهم لولا إمكانية وجود حياة ثانية يعيشونها في السر. ففي الحياة الأولى لن يجدوا تفهماً. فماذا عن استقرارهم النفسي لو لم يكونوا يمارسون حياة ثانية؟ إن الإجابة عن هذا السؤال لن يكون إلا افتراضياً. ولولا ذلك لكانت إمكانية معاناتهم النفسية بوجه من الوجوه لا شك كبيرة جداً.

الحياة الثانية توفر للمرء حقه من السعادة:

يثبت ما أدركه عالم الاجتماع جورج سيمسل منذ بداية القرن العشرين صحته في جميع الروايات التي قصها علينا أولئك الذين استجابوا لإعلاننا «البحث عن أسرار» بأسماء مستعارة. فالأسرار توفر «توسيعاً هائلاً للحياة» لأن «الكثير من مضامين الحياة لا يمكنها أن تظهر علناً». فالقاضي لا يمكنه أن يرتدي التنورة أمام الرأي العام. ولا يمكن لأب أن

يرتدي جوارب النايلون النسائية في حفل عيد ميلاد ابنه. ولا يمكن لسيدة أعمال أن تفضح عن نفسها في مكان عملها. كثير من الناس لن يشعروا بالسعادة لو لم تكن هناك إمكانية وجود حياة ثانية.

أيضاً «شارلوت» التي روت لنا أختها غير الشقيقة «سابينا» قصتها، لا يمكن أن تكون إنساناً سعيداً لو لم تكتشف إمكانية أن تعيش حياة في السر.

بعض الناس يحملون معهم أسرارهم إلى القبر. ولكن ذلك أيضاً ليس ضمانة أن لا يطلع عليها أحد من الناس. في بعض الحالات يتم الكشف عن أسرار حالما توفي حاملها أو حاملتها. والقصة الآتية بدأت أحداثها أيضاً في إحدى المقابر:

مثال: أثناء دفن أختها غير الشقيقة «شارلوت»، التي تكبرها بتسعة وعشرين عاماً التقت سابينا رجلاً كهلاً بدا أنها كانت تعرفه. وعندما اقترب منها عرفته. لقد كان منذ وقت طويل تلميذاً من تلامذة أختها. كان يسكن على مقربة منهم، وكانت شارلوت مهتمة جداً بأمره كما تتذكر. وعندما رحبت بالمشارك في العزاء بادرته بقولها: «أنت إذن هربرت، لقد كانت أختي تحبك كما لو كنت ابنها» نظر إليها هربرت بجدية وحزن قائلاً: «لا بل أكثر من ذلك». بدا لسابينا التي كانت في حداد على أختها غير الشقيقة وكأن الزمن قد توقف للحظة. فلم تستطيع أن تصدق ما سمعته للتو. هل كانت شارلوت على علاقة مع ابن الجيران الذي تكبره بأربعة وعشرين عاماً؟

هل كانت أختها، التي كانت ترى فيها سيدة مثقفة وجدية، تكنُّ للفتى، الذي كانت تعطيه دروساً خصوصية، أكثر من المشاعر التربوية؟

بدا لها الأمر مستحيلاً. لكن البراهين عند هربرت: الرسائل والصور والذكريات.

شعر هربرت بالراحة وهو يحكي لأخت حبيبته غير الشقيقة عن السر الذي يحمله منذ سنوات طويلة عن حبه الأول والأهم في حياته لأختها المتوفاة. وشيئاً فشيئاً أدركت الأخت الصغرى كيف تحولت دهشتها إلى سعادة صامتة. لقد أسفت لمصير شارلوت البائس. فقد كانت في السابعة عشرة من عمرها عندما توفيت والدتها في مرض السل. وبوصفها الأكبر سناً بين خمسة أطفال كان عليها أن تتحمل مسؤولية الأسرة. فقد اعتنت بإخوتها كأنها أمهم، وكانت تقوم على خدمة أخت أصغر كانت مصابة بمرض بالتهاب الدماغ الذي لا شفاء منه. وبالرغم من هذا العبء استطاعت الحصول على شهادة الدراسة الثانوية ثم درست في الجامعة وأصبحت معلمة، معلمة نشيطة، استطاعت أن ترتقي بعدها إلى مدّرسة في المرحلة الثانوية.

وعندما أراد الوالد الزواج ثانية بعد ثماني سنوات لم تكن سعيدة بذلك. فقد اعتبرت أن لا لزوم لهذا الزواج لأنها كانت تدير كافة شؤون البيت، والأسرة ليست بحاجة إلى أم جديدة. لكنها لم تستطع أن تحول دون زواج والدها. وعندما ولدت أختها من الزوجة الثانية «سابينا» تقبلت هذا المخلوق الجديد ضمن الأسرة وكانت الأخت التي تكبرها بتسعة وعشرين عاماً وتعتني بها. عاشت شارلوت حتى وفاتها مع أختها الصغرى من أمها حياة لم تكن تخلو من صراعات.

كانت سابينا معجبة بأختها غير الشقيقة التي تكبرها بسنوات عديدة لقدرتها واستعدادها للتضحية. لكن كان يؤلمها أن لا يكون لأختها -كما

كانت تظن حتى حدث ذلك اللقاء العفوي في المقبرة- حياتها الخاصة وقليلاً من السعادة.

لكن هربرت رسم ملامح صورة أخرى لأختها. وهكذا تحولت شارلوت فجأة إلى امرأة لها شهواتها وحياتها العاطفية، إلى امرأة جريئة. ولو أن الأمر قد افتضح لنالت جزاءها بسبب التغرير بفتى قاصر وأصبحت محتقرة في المجتمع.

هنا لم تكن المعلمة والتلميذ شريكين متكافئين من حيث الفارق الكبير في السن. كان هربرت بالنسبة لأختها، وبالرغم من يفاعته، الشريك المناسب. وهذا ما كانت سابينا مقتنعة به لأنه -وكما كتب لسابينا في رسالة عقب لقائهما أثناء دفن شارلوت- كان بسبب الأوضاع السياسية أسرع نضجاً. «كنا بعد الحرب رجالاً ذوي خبرة، واثقين بأنفسهم، طموحين وأنضج مما تنبئ به أعمارنا الحقيقية».

«كانت علاقتها مع تلميذها هي السعادة الأكبر في حياتها، كما تقول الآن الأخت غير الشقيقة، التي تلقي الآن ضوءاً آخر على حادثة جرت قبيل وفاة شارلوت: عندما اشتد عليها المرض كتبت رسالة إلى تلميذها السابق هربرت وطلبت من أختها الصغرى أن تنقلها له. لكن الأخت لم تكن تعرف عنوانه ولم تكن تعلم ماذا يمكن لهذه الرسالة أن تكون. فأخبرت سابينا عنها وتوصلت الشقيقتان إلى قرار بأن الرسالة تتعلق بالحالة الحرجة التي تمر بها أختهما الكبرى. فحرقتا الرسالة. والآن بعد لقاء سابينا مع هربرت في المقبرة اتضح لها أن شارلوت لم تكن مشوشة الذهن. بل كانت تريد أن تودع حبيب عمرها. كان أسفها لا يوصف لأن

الرسالة لم تصل إلى المرسل إليه، لكنها كانت فرحة في أعماق نفسها بالسر الذي خفف من أعباء الحياة على أختها وجعل لها قيمة؛ لأن علاقة حبها مع هربرت كانت أكثر من مجرد علاقة، كما أكد في رسالته -وهو الآن رجل كبير السن- إلى سابينا قائلاً: «تبقى بالنسبة لي أروع امرأة التقيت بها في حياتي».

لو أن شارلوت لم تعش إلا حياتها الواعية لواجباتها، المفعمة بحس المسؤولية، كابنة وكأخت وكمعلمة، فلربما كانت قد ماتت بتعاسة، ولما كانت قد عاشت الجانب الأنثوي من حياتها، ولما عرفت من الحياة سوى حبها للعناية بالآخرين وبأخوتها. لقد استطاعت أن تزيح كل التقاليد، وبالتأكيد أيضاً أن تنتصر على المخاوف الماثلة أمامها، وتقر بمشاعرها؛ لأنها عاشت حياة ثانية إلى جانب حياتها الرسمية، ودفعت لقاء ذلك ثمناً باهظاً. لكن عبر سرها عرفت أيضاً «توسيعاً هائلاً» لكينونتها. لقد استطاعت أن تطلق وتعيش جوانب في شخصيتها، ربما كانت ستخفيها في حياتها الأولى العادية، لو أنها كتمت حبها لتلميذها. من هنا نقول إن من حق الإنسان الحصول على السعادة، وأن من المسوح به الكذب على إنسان نحبه جداً. ومصطفى مقتنع أيضاً بذلك.

مثال: مصطفى مولود في تركيا التي غادرها في يفاعته إلى ألمانية. واجه في بداية حياته هناك مشكلات اندماج في مجتمعه الجديد. وسلك في فترة من حياته الطرق الخاطئة. ثم تعرَّف شابة ألمانية ساعدته، بالحب وقوة العزيمة، في الوقوف على قدميه، فتزوجا. اتخذ من اسم عائلتها اسم عائلة له؛ لأن زوجته كانت ترى بأن أحداً لا يستطيع أن يلفظ اسمه

obeikan.com

التركي. وبالتعاون تخلصا من الديون التي كانت تلاحق مصطفى وأسسا معاً شركة صغيرة. بداية الأمر رضي بأن تقوم زوجته بملاحقة كل شيء؛ لأنه لم يكن يحسن حل الأمور مع السلطات الألمانية المختصة. وأبدى أيضاً تفهماً لمسالة أنها لم تسمح له بتكوين ثروة خاصة. أخيراً ظهر أنه لم يكن حكيماً فيما يتعلق بالأمور المالية. فقد صعب عليه أن ينفذ مزيداً من طلبات زوجته الشابة. فلم يكن مسموحاً لأصدقائه من الوطن زيارته في منزله. فمن أجل تسهيل عملية اندماجه في الوسط الألماني لم يُسمح إلا للأصدقاء والمعارف الألمان أن يكونوا في عداد المقربين منهما. وبالفعل خضع مصطفى لكل رغبات واقتراحات زوجته، فقد كان يحبها. وكانا سعيدين معاً. أما الشيء الذي كانت زوجة مصطفى تجهله فهو أنه كان يمارس حياة تركية بالإضافة إلى حياته الألمانية. كان له مقهاه الذي يرتاده بانتظام، وحاناته التي يلتقي فيها مع أبناء بلده، وكانت له أيضاً عشيقة تركية. ولولا هذه الحياة المقابلة لما كان باستطاعته -كما يعتقد- أن يحافظ على استمرار حياته الزوجية: «كنت بالتأكيد سأقدم يوماً ما على التحرر من كل شيء وإلقائه بعيداً. ولكن بهذا الأسلوب لي عالمي الخاص الذي زادني قوة. ولو أن زوجتي كانت على علم بهذا العالم لكانت ربما لاحقتني وشعرت بأنني أخونها، لكنني أرى بأنه فقط مع هذا العالم السري، الذي أجد نفسي فيه قريباً من وطني، يمكنني أن أكون الزوج الذي ترغبه».

إن الميول الجنسية غير العادية والتوق إلى ممارسة الحب خارج نطاق الزوجية، والخجل من تحرير الحاجات من الضغوط القائمة بين وقت وآخر، والرغبة في عدم إنكار الجذور الثقافية، مهما كانت الأسباب

الكامنة وراء ممارسة الحياة السرية، يبقى الدافع لاختيار حياة ثانية هو واحداً في جميع الحالات:

فالمرء يريد مساعدة تلك الجوانب في شخصيته التي لم يعشها، التي لا يمكن الكشف عنها في الحياة اليومية العادية، في الوصول إلى حقها. يريد أن يشعر بأنه إنسان كامل مدة من الوقت، دون التعرض للحدود غير المرغوبة وجور الحياة «العادية». يريد على الأقل بين مدة وأخرى أن يعيش حاجات مهمة. كما يريد أن يشق طريقه دون أن يتأثر بالآخرين. كيف يقول جوبكاتوم؟ «لدي شيء يخصني وحدي بنسبة 100% وهذا بالنسبة لي في غاية الأهمية». فمن يفشل، لأسباب أخلاقية أو غيرها، في الاحتفاظ بسر يتناول جانباً معيناً من جوانب شخصيته، يفشل إلى حد كبير أيضاً في مجمل حياته.

ليس شرطاً أن تكون دائماً مظاهر رغبات، مثل الميول الجنسية الخاصة أو حباً ممنوعاً أو تبديل هوية، بل يمكن أن تكون أيضاً رغبات وحاجات تبدو أقل أهمية، يعتقد المرء بأنه غير قادر على تحقيقها - تستحق أيضاً التحقيق على الأقل في حياة ثانية. وهكذا تسمح لنفسها إريكا مثلاً بين الحين والآخر بإجراء أحاديث مع المختصة النفسية، لا يطلع عليها أحد:

مثال: أنا متزوجة من أحد السياسيين. وأسرتنا معروفة -طبعاً- جداً في منطقتنا، ونعيش إلى حد ما عيشة لافتة للنظر. يتوقع زوجي مني أن أكون له عقيلة نموذجية تشكل سنداً له، وهذا ما أفعله. لكن في ظل هذه العلاقة فأنا دائماً من يعطي. أما هو فيأخذ فقط. أنا أدعمه وأعتني بالعلاقات الاجتماعية وبمنزل يشعر فيه المرء بالراحة. أما من أين لي تلك القدرة

Obeikan.com

فلا يسأل البتة. كنت ذات مرة في غاية الاضطراب لأن صبري قد نفد شيئاً فشيئاً. وخفت أن أصاب بالكآبة. لحسن الحظ عثرت آنذاك على مختصة نفسية ساعدتني على الخروج من هذا القنوط. لم يكن الأمر معالجة نفسية، بل كنا نتبادل الحديث. وذات مرة ارتأت هذه المختصة بأنني لم أعد بحاجة إليها. وكان ذلك صحيحاً. لكن مجرد التصور بأنني قد لا أجد في المستقبل مرة أخرى من أتحدث إليه كان يخيفني. ولذلك سمحت لنفسي بالتردد على المختصة النفسية بين الحين والآخر لأنهل منها القوة التي تمدني بالثقة بالنفس والشجاعة دون أن يعلم أحد، وهذا أفضل. هذه الأحاديث مع المختصة النفسية هي ملكي الخاص الوحيد. إنها سري الذي يساعدني ويوفر لي إمكانية تنفيذ مطالب زوجي ومتطلبات الحياة.

مهما كان الدافع الذي يؤدي إلى ممارسة حياة ثانية، يجب على حامل السر أن يكون على بينة من أمر واحد، وهو: عندما «يفر»، وعندما يُكتشف ملاذه لا يستطيع في أكثر الأحيان أن يحسب حساب أن الآخرين سوف يتفهمون سلوكه. ومن هنا تكون الحياة الثانية دائماً حياة مغامرة.

تضم المجموعة القصصية بعنوان «طاولة الليمون» تأليف يوليان بارنز قصة تحمل عنوان «قفص الشجرة المثمرة» يصف فيها المؤلف كيف يمكن لحياة ثانية وديعة في البداية أن تقلب كل شيء رأساً على عقب عندما تُكتشف:

> تم اكتشافها على الوجه الآتي: يتعلق الأمر ببصلات نوع من الزهور. كان على صديقة من قرية مجاورة أن تقوم بإيصال عدد من بصلات زهر النرجس. قالت أمي إن والدي سوف يقوم بجلبها معه وهو في طريق عودته من الفيلق البريطاني. فاتصلت هاتفياً بالنادي تريد التكلم معه.

لكن السكرتيرة قالت لها إنه غير موجود. وعندما تلقت أمي الإجابة التي لم تحسب لها حساباً عزت ذلك إلى غباء محدثتها على الطرف الآخر عندما قالت لها: «إنه يلعب البليياردو»

فأجابت: «لا، إنه لا يفعل ذلك».

فأجابت أمي: «لا تكوني عنيدة، إنه يلعب البليياردو بعد ظهر كل يوم أربعاء».

فقالت السكرتيرة على الطرف الآخر: «يا سيدتي الفاضلة، أنا أعمل منذ عشرين سنة سكرتيرة هنا في النادي. وفي هذا الوقت بالذات ما من أحد يلعب بلياردو. أيام الاثنين والثلاثاء والجمعة فنعم، أما الأربعاء لا. هل فهمتني جيداً».

عندما أجرت أمي هذه المكالمة كانت في الثمانين من عمرها وكان والدي في الحادية والثمانين وكما تبين كان لوادي ومنذ مدة طويلة علاقة مع «إلزي» الجارة الأرملة.

والآن بعد أن طار سبب اختفائه بعد ظهر الأربعاء، ترك زوجته. وبناء على سؤال ابنه الدائم: «لكن. . . لماذا في هذا الوقت بالذات؟ يعني طالما أن الأمر هكذا منذ سنوات عديدة»

فأجاب الأب: «كيف تقول سنوات عديدة؟»

فأجاب الابن: «لأنك منذ سنوات عديدة وأنت تقول أنك في النادي تلعب البليياردو».

قال الأب: «أكثر الأحيان كنت في النادي يا ولدي. وكنت أقول دائماً بلياردو من أجل تسهيل الموضوع. أحياناً كنت ببساطة أجلس في السيارة وأسرح نظري في أحد الحقول. أما إلزي فلم تظهر إلا منذ عهد قريب».

لماذا تكون الحياة الثانية معقولة؟

أحياناً ليس بالإمكان الكشف عن جميع الجوانب المهمة للشخصية في حياة واحدة. فربما لا تتلاءم مع منظومة القيم في المجتمع الذي يعيش فيه المرء. وربما أيضاً لا يريد البتة أن يتخلى عن الحياة «العادية»، بل أن يكون بين مدة وأخرى رجلاً أو امرأة أخرى. والدافع الذي يكمن خلف ذلك هو أن المرء يستطيع في حياة ثانية يعيشها في سرية، أن يعيد الحق لتلك الجوانب من جوانب شخصيته التي لم يحيَها. والرغبات غير المشبعة فيها، وأن يشعر بين الحين والآخر على الأقل بكامل كينونته كإنسان.

8- الأسرار تمنح النساء القوة:

هناك سبع حجج تُساق لصالح ضرورة وجود الأسرار: الاستقلالية، الحصول على الحماية ومنحها، تحقيق الرغبات التي لم تحقق، بلوغ الأهداف، فصل الشأن العام عن الخاص، تقوية علاقات الحب، وتلوين الواقع الصعب بألوان زاهية، وكلها صالحة للجنسين؛ إذ يمكن للرجال وللنساء الكسب عبر كتمان السر. فالأسرار البناءة تصب في مصلحة جميع الناس. لكن في بعض النواحي يكون الجنس اللطيف معنياً أكثر بهذا الموضوع. فلدى النساء أسباب لكتمان السر أكثر منها لدى الرجال، وهذا يعود إلى ظروف حياتهن الخاصة التي لا تتيح لهن غالباً مجالاً خاصاً. فحياة النساء غالباً ما تكون أكثر هشاشة من حياة الرجال، وهذا يعني أنه تصعب عليهن الاستقلالية، أو أن يمتلكن ما هو خاصٌ بهن، أو الشعور بأنهن لسن تحت المراقبة.

يحاول الكثيرون التدخل في حياة النساء، وغالباً بنية سليمة واحتياجات قابلة للتحقيق. ولكن هذا القلق قلما يروق للنساء. ولذلك يعمدن للبحث عن مناطق هادئة وآمنة يجدن فيها أنفسهن ويراجعن فيها خططهن وأهدافهن ويطورن فيها أنفسهن بعيداً عن كل إزعاج.

النساء بحاجة إلى أسرار. فمن دونها يمكن أن لا يجدن القدرة الكافية على مواجهة تحديات حياتهن. فبسبب المخالطة الاجتماعية، وبسبب دورهن التقليدي الذي ما يزال فاعلاً، فإن النساء ما زالت وكما كانت دائماً تواجه خطر الوقوع في موقف المغلوب على أمره عبر التكيف الكبير والتبعية، وكذلك أيضاً عبر المخاوف والشكوك، ومن ثَمّ ضياع أهدافهن الخاصة من أمام ناظريهن.

ليس للنساء -بخلاف الرجال- «غرفة خاصة بهن» على نحو آلي كما طالبت الكاتبة فرجينيا وولف Virginia Woolf. ويمكن أن يكون المقصود بهذا القول غرفة حقيقية ويمكن أيضاً أن يكون ذلك مجالاً في الحياة لا يسمح إلا للنساء بالدخول إليه. وقد أكدت الباحثة كريستيانه كرافوت ألسوب Christiane Kraft Alsop التي سألت رجالاً ونساءً عن أشياء يخفونها عن الشريك أو الشريكة (انظر فقرة: الأسرار تخدم قضية الحب) في دراستها، بأن عدد النساء اللواتي يحتفظن بسر يفوق عدد الرجال وتوصلت إلى نتيجة: «ما تزال الشراكة بالنسبة للنساء مقترنة بتبعات أكبر، واستثمارها أعلى ومن ثمّ أغنى بالصراعات. فالرجال -كما يُعتقد- يتدبرون لأنفسهم مجالات أخرى لحرية الحركة».

ولا يقتصر الأمر على صعوبة حصول النساء على «مجالات لحرية الحركة» أكثر منه على الرجال، فغالباً ليس لديهن مطلقاً أي إدراك

لأهمية ودور هذه المجالات الحرة؛ إذ ينهكن أنفسهن بين العمل وحياة الشراكة وتربية الأطفال. إنهن يسخّرن أنفسهن طواعية لشؤون ومشكلات الآخرين، وآخر ما يفكرن به هو الاهتمام بأنفسهن.

تعاني النساء في هذا الوقت ضغوطاً نفسية هائلة، ولهذا أسبابه التي لا تظهر هكذا وبهذه الصيغة إلا في حياة النساء:

الإجهاد المزمن وضيق الوقت: تقضي النساء على نحو واضح بالعمل المهني والأعمال المنزلية وتربية الأطفال والعناية بالمسنين من أفراد الأسرة وقتاً أطول مما يفعله الرجال. فالنساء في سن 25 – 35 عاماً يعملن على سبيل المثال بمعدل 90 ساعة في الأسبوع. بينما لا يتعدى ذلك بالنسبة للرجال من الفئة نفسها العمرية 68 ساعة.

التقسيم التقليدي للأدوار: عندما يرزق الشريكان بالأطفال يُبعث التقسيم التقليدي للأدوار من جديد. تبقى المرأة في المنزل ويصبح الرجل المعيل الوحيد. وتضطر الأمهات الشابات إلى تجميد خططهن في الحياة والعمل حتى وقت غير محدد. وهذا يؤدي إلى الضجر، وفي بعض الحالات إلى القنوط واليأس. والنساء اللواتي يمارسن مهنة هن أكثر استقراراً من الناحية النفسية، فلديهن في المهنة «مجال لحرية الحركة» ولا أقول لديهن سر، بل مجال خاص لا يمكن الحصول عليه ضمن نطاق الأسرة.

العمل الذي تفرضه العلاقات: تشعر النساء بالمسؤولية عن جو الشراكة والأسرة، ويدركن فوراً حاجة أناس من خارج النظام الأسري إلى مساعدة ودعم. فالنساء تعتني بالآخرين وتتراجع مصالحهن وحاجاتهن بسرعة إلى الخلف لتصبح خاسرة.

obeikan.com

وغالباً ما تضيع النساء تحت وطأة متطلبات الحياة. يشعرن بالإنهاك والتشتت واليأس والضعف. فبينما تتاح غالباً للرجال فرصة تأمين مجالات خاصة بهم، لا يرى الكثير من النساء سوى القليل من إمكانات الحصول على ملاذ مريح. وهذه حالة يمكن أن تكون نتائجها على النحو الآتي:

تعاني النساء الاكتئاب ضعف ما يعانيه الرجال. خطر إصابتهن بالمرض يتراوح بين 10 – 25% بينما تتراوح هذه النسبة لدى الرجال بين 5 – 12%، ويشكل الشعور باليأس، وبأنهن تحت رحمة أحد، سبباً رئيساً من أسباب مرض الاكتئاب. وقد أكد الخبير الأمريكي في علم النفس الاجتماعي مارتين سيليغمان Martin Seligman بأن على النساء أن يحصلن أثناء مسيرة حياتهن على «خبرة فائضة» بالاضطراب، حيث يقول: «عادة ما يثني الأهل والمعلمون على سلوك الصبيان أو ينتقدونه، أما سلوك البنات فغالباً ما يتجاهلونه. يُربى الصبيان على الثقة بالنفس والنشاط. بينما تربى الفتيات على التبعية والاستكانة والسلبية. وعندما يكبرون تجد النساء أنفسهن في ثقافة تحتقر دور ربة المنزل والأم. وإذا ما توجهت امرأة نحو عالم العمل تتوصل إلى القناعة بأن مؤهلاتها لا تلقى من الاعتراف الذي تلقاه مؤهلات الرجل».

وما تزال في مجتمعنا الشروط المفروضة على المرأة أكثر سوءاً من تلك المفروضة على الرجل على نحو واضح. يضاف إلى ذلك بأن النساء يصعبن الأمر على أنفسهن. فالمرأة تنشد الكمال، تريد أن ترضي الجميع، تريد أن تنفذ جميع المتطلبات على قدر المساواة، وتميل إلى خلق الكثير من الأفكار والهموم، حول الأحباء وحول نفسها وحول «الله والعالم». لدى

النساء ميل إلى إمعان التفكير، وهذا أمر خطير. فعندما تكون الأفكار مليئة بالمشكلات الذاتية ومشكلات الآخرين والمخاوف من المستقبل فلا يبقى هناك مجال «لحرية الحركة» يمكن أن ينشأ فيه جديد، أو على الأقل ما يقوي العزيمة. وقد تمكنت الأستاذة الأمريكية في علم النفس سوزان نولن هوكسيما Susan Nolen Hoeksema من جامعة ميتشغان في دراستها من التأكيد على وجود علاقة حتمية بين الإمعان في التفكير وبين حالات الاكتئاب. وقد أقرت النساء في هذه الأبحاث أكثر من الرجال كثيراً «بأنهن يغرقن في التأمل عندما يكنّ حزينات أو كسيرات النفس». وتضيف قائلة: «وفي موضوع السؤال إلى أي حد يؤثر الإمعان في التفكير وغيره من العوامل التي تمت معالجتها على إمكانية الإصابة بالاكتئاب عند النساء، تبين لنا بأن الإفراط في التأمل والتفكير -كما تشير الإحصائيات- هو العامل الأول».

السر يوفر إمكانية وجود الملاذ الآمن:

يمكن للأسرار أن تكون إستراتيجية مضادة وفاعلة خاصة بالنسبة للنساء اللواتي يشعرن بالضغوط النفسية ويعملن بأكثر من طاقتهن. فالأسرار توفر للنساء فسحة من الوقت ومجالاً للتنفس واستلهام القوة والابتعاد عن الآخرين. وبما أن الكثير مطلوب من النساء، ومهام كثيرة بين جداً بين أيديهن، فإنهن بحاجة ماسة إلى توازن. والأسرار هي التي تحقق هذا التوازن. بإمكانهن استعادة التوازن لحياتهن التي تمر بحالة حرجة بحيث تسمح للمرأة أن تنصرف لمدة معينة عن كل شيء، وتلجأ إلى جزيرة لا يمكن لأحد غيرها، أو لفئة مختارة أن ترتادها. فالمرأة

التي لديها سر تكون لديها القوة؛ لأنها تملك شيئاً خاصاً بها لا يمكن لأحد أن يستولي عليه، يمثل بالنسبة لها مصدراً للطاقة. وسواء أكان هذا الشيء مجرد دفتر ذكريات دونته سراً، أو حتى زيارات منتظمة لمتاحف أحاطتها بالسرية، أو حضور محاضرات بالسر، أو إجراء أحاديث مفيدة مع صديق قديم، أو حتى ربما الإقدام على علاقة حب سرية يمكنها أن تجعل الشعور بالقيمة الذاتية أكثر استقراراً.

والأسرار تجعل المرأة قادرة على استعادة سيطرتها على حياتها الخاصة وأكثر تحرراً من التأثيرات الخارجية والإساءات. ولذلك فوجود «غرفة خاصة» يؤدي وظيفة مهمة في حياة النساء:

- فالمرأة التي تحتفظ بسر يمكنها أن تلجأ إلى نفسها. يمكنها - دون التعرض لمضايقات التأثيرات الخارجية تحت حماية معرفتها السرية- أن تفكر ملياً بنفسها وبعلاقتها بالآخرين وبأهدافها وأشواقها.
- والمرأة التي لديها سر تملك «معطفاً» واقياً، يضمن لها الحفاظ على مسافة سليمة بينها وبين الحالات المتطفلة التي تشكل ثقلاً على الحياة.
- المرأة التي لديها سر يمكنها أحياناً أن تسترخي. يمكنها أن تعيش جوانب ما كانت -لولا ذلك- لتجد لها مكاناً في حياتها.
- المرأة التي لديها سر يمكنها أن تتحول إلى امرأة أخرى عندما يكون العالم «الحقيقي» قاسٍ عليها وصعب ويثقلها بالمطالب.

openikan.com

- المرأة التي لديها سر يمكنها أن تقي نفسها وأطفالها، حيث تتيح لنفسها -بمساعدة سرها الدفين- حياة لا وجود لها من دون وجود هذا السر، أو لكانت حياتها مدمرة كلياً.
- المرأة التي لديها سر تملك محطة وقود خاصة بها، تؤمن منها لنفسها كل الأشياء المهمة التي تحتاجها لكي لا تفقد توازنها.
- أما مدى أهمية حفظ السر في حياتهن قد عرفتها النساء في كل العصور، الأمر الذي أكسبهن السمعة بأنهن أستاذات في الرياء والتصنع والتمثيل.

الأنثى كاذبة:

النساء محط شبهة بالنسبة للرجال منذ القدم. «ماذا تريد المرأة؟» هذا ما سأله سيغموند فرويد محتاراً. ما هو تفكير وشعور هذه المخلوقات الغريبة التي يصعب على الرجال سبر أغوارهن، وفي حالات ليست بالنادرة يشعرون بخطرهن؟ قصة آدم ماثلة أمام أعيننا. آدم الذي أغوته حواء وخدعته وجعلته يقضم من التفاحة المحرمة، الأمر الذي أدى إلى طردهما من الجنة. لذلك يتساءل الناس حتى الآن، هل يمكن للرجل أن يثق بالمرأة؟ إطلاقاً لا. البتة. فالفيلسوف شوبنهاور Schopenhauer المعروف بموقفه السلبي من المرأة، اتخذ موقفاً واضحاً وعنيفاً من هذا السؤال. فقد كان يرى بأن الأنثى مخلوقة للكذب والتستر والخداع. فالطبيعة -كما يقول شوبنهاور- زودت المرأة بفن التصنع والتمثيل؛ لأنها أضعف وأقل عقلاً من الرجل. ولكي لا تهلك نتيجة ضعف مستوى الذكاء عندها، فإنها تملك القدرة على الخداع والتلون. إنه تعويض عادل!

obeikan.com

وعلى الشاكلة نفسها يسوق الفيلسوف الألماني الآخر فريدريش نيتشه Friedrich Nirtzsche حججه أيضاً عندما يكتب: «ما علاقة المرأة بالحقيقة؟ فمنذ البدء لا شيء أغرب وأكره وأشد عداوة للمرأة من الصدق. فالفن الذي أكثر ما تجيده هو الكذب، وأسمى القضايا التي تهمها هي المظهر والجمال».

وفي البوق نفسه ينفخ أيضاً الفيلسوف النمساوي أوتو فايننغر Otto Weininger حيث ورد في كتابه الصادر عام 1903، تحت عنوان «الجنس والشخصية» عن «عجز النساء عن إدراك الحقيقة» وكان على ثقة بأن عدم وجود الإرادة الحرة بالصدق هي التي تتحكم بكذبها. . . ومن كانت له خلطة بالنساء فإنه يعرف كم من مرة، وتحت الضغط الآني للإجابة عن سؤال ما، يعطين أسباباً خاطئة لما قلنه أو فعلنه، من نسيج الخيال».

إن حكم فايننغر على نفسية المرأة في منتهى القسوة. «الأنثى كاذبة. . . ولا يمكن للمرء الحديث عن الحقيقة إلا إذا كانت ذاته تنضوي على شيء؛ لأن الحقيقة لا تُدرك إلا بالكينونة، ولا يمكن أن تكون صلة للكينونة إلا مع من كانت له شخصية ذاتية متميزة.

يريد الرجل الحقيقة كاملة. أي أن يكون فقط، وعلى عكس ذلك: فمن يقول شيئاً عن واقعة ما دون أن تكون لديه الجرأة الحقيقية على تحقيق كينونته، ومن يطلق الأحكام على الشكل دون الجوهر، ومن ليس بقادر على الصدق -كالمرأة- فمحكوم عليه بالكذب. ولذلك تكذب المرأة دائماً حتى عندما تقول الحقيقة على نحو موضوعي».

obeikan.com

أما الرجل فعلى العكس، فهو صادق دائماً ولا يمكنه الكذب على الإطلاق. وبخلاف المرأة التي يمكنها أن «تضحك وتبكي وتحمر خجلاً عندما تريد، وتبدو في مزاج سيّئ حسب الطلب» يفتقر الرجل «إلى مثل هذا الكذب. . . وعلى ما يبدو أيضاً إلى الشروط العضوية والفسيولوجية».

ويحمل أيضاً طبيب الأعصاب الألماني باول يوليوس موبيس Paul Julius Mubius في كتاب له بعنوان حول «القصور الفسيولوجي عند المرأة» عن «خصائص» فسيولوجية، المسؤولية عن كذب المرأة، الذي لا يشك بوجوده.

ويؤكد موبيس بأنه من «الثابت» بأن أقسام الدماغ المهمة جداً للحياة الروحية وتعاريج الجبهة والصدغين أقل تطوراً لدى المرأة منه لدى الرجل وأن هذا الاختلاف قائم منذ البداية. ويرى موبيوس في ذلك السبب في أن «الرياء، أي الكذب، هو بالضرورة السلاح الذي وهبته الطبيعة للمرأة ولا يمكنها الاستغناء عنه».

ومع أن ليس بوسع المرء الآن سوى أن يسخر من السادة شوبنهاور ونيتشه، وفاييننغر وموبيوس. إلا أنهم محقون بعض الشيء في تحليلهم، فالنساء بارعات بالفعل في الخداع والمناورة والتلون. لكن ليس مرد هذه القدرات إلى ضعفهن الفطري المزعوم، أو إلى غبائهن، ولا إلى المزاج السيّئ الذي يمكن أن يكون لدى المرأة، بل العكس تماماً: إنها دليل على الذكاء الخاص والقوة. ففي الماضي -على نحو خاص- كانت الأسرار والكذبات عبارة عن إستراتيجيات مهمة لدى الجنس اللطيف، حيث لم يكن يتاح لهن الوصول إلى وسائل القوة وإمكانات التأثير الأخرى. فقد عمدت النساء إلى المكر والخداع لأنهن عشن في مجتمع قلما حسب حساباً

obeikan.com

لرغباتهن وحاجاتهن وأمنياتهن. ففي ظل غياب القوة الفعلية الواضحة اضطرت النساء إلى اللجوء لإستراتيجيات قوة المستضعفين. وقد كتبت الشاعرة أدرينه ريش Adrienne Rich تقول: «كنا مضطرات للكذب على الرجال لنبقى على قيد الحياة».

السر سلاح المغلوبين على أمرهم:

عانت النساء قروناً طويلة الضعف والخضوع للرجل. لم يكن لهن حقوق، بل كنّ مستسلمات لإرادة أزواجهن، مجبرات على التأقلم مع قوانين المجتمع الذكوري والخضوع لها. وللذود عن شعورهن بالقيمة الذاتية والحفاظ على استقلاليتهن لم يبق لهن غالباً خيار آخر سوى كسب بعض القوة والنفوذ باستخدام وسائل المكر الأنثوية.

ظاهرياً كن يتصرفن كما يفترض بالمرأة أن تتصرف، وكما يتطلب المجتمع منهن. وبالرغم من ذلك استطعن فرض تصوراتهن الخاصة بحيث حققن التكيف مع ما يتطلب منهن -وغالباً ظاهرياً فقط- يقول مثل انكليزي: «الصمت هو أجمل ما تتحلى به المرأة». وكانت النساء تعرف دائماً كيف يمكن للمرء تحقيق أهدافه عن طريق الكتمان والصمت، وكيف يقي نفسه وأطفاله ويقرر مصيره بنفسه. «فإن كانت المعرفة قوة تكون المعرفة السرية قوة مضاعفة، يمكن حجبها وتبادلها واستخدامها كرأسمال. بالنسبة للنساء اللواتي كن محرومات -بحكم التقاليد- من الأعمال والمهن الحاملة للوجاهة، ومن ممارسة السلطة العامة، ربما كان الشكل الوحيد لممارسة السلطة يكمن في الأسرار التي حافظن عليها». كما تقول الكاتبة الأمريكية ليتي كوتين بوغريبن Letty Cottin Pogrebin.

وبما أنهن تحت رحمة الرجل وحمايته في مجتمع أبوي بطريركي، فقد تعلمن فن كتمان أفكارهن ورغباتهن الحقيقية، وبدلاً من ذلك القبول -ولو ظاهرياً- بنظم المجتمع الذكوري، فقد لعبن دور الزوجة الوفية الخانعة، واشترين بمناورة الخداع هذه مجالاً حراً ضيقاً.

«فللحصول على زوج والمحافظة عليه كان على المرأة أن تبني «الأنا» الذكورية وتعكسها بضعف حجمها. وكان عليها أن تصغي بآذان مشنفة وعيون براقة إلى الحكايات التي يرويها الرجل مهما كانت مملة» كما تصف الباحثة النفسية هاريت. ج. ليرنر Harriet G. Lerner وضع النساء في عصور قديمة.

كما تطرقت الكاتبة فرجينيا فولف Virginia Woolf إلى الرابطة بين اضطهاد المرأة ومناورات الخداع التي تقوم بها، في كتابها «غرفة خاصة» حيث تصف فيه ماذا يحدث عندما تكون المرأة صادقة مع الرجل، عندما تمتنع عن الإعجاب به والتأكيد على عظمته. «عندما تبدأ بقول الحقيقة، تخبو صورته وتتقلص حيويته. كيف سيصدر الأحكام في المستقبل وينقل المتوحشين إلى عالم الحضارة ويسن القوانين ويؤلف الكتب ويتزين ويلقي الخطابات في الحفلات الرسمية، عندما لا يرى عظمته في ضعف حجمها على الأقل مرتين في اليوم، عند الفطور وعند العشاء؟».

لقد عرفت النساء أن أمنهن الشخصي مرتبط بقدرة أزواجهن على أداء عملهم. ولذلك يشددن من أزرهم ولا يخالفن لهم أمراً حتى لو كانت آراؤهن، ربما في الكثير من الأحيان، تختلف عن آرائهم. وفي هذا الصدد تقول ليرنر: «على الجنس الضعيف أن يحول دون إدراك الجنس القوي

obeikan.com

لقوة الجنس الضعيف، وإلا سيشعر الجنس القوي بالضعف بسبب قوة الجنس الضعيف».

مراعاة للقوانين الذكورية ورقة الشعور الذكورية أخضعت النساء قديماً أنفسهن لالتزامات محرجة عندما كان الأمر يتعلق بالحياة الجنسية. فلم يكن وارداً على الإطلاق أن يظهرن رغبتهن الجنسية مخافة أن يتهمن بالجنون، أو يوصفن بالساحرات الشريرات وضحايا الشيطان. فالزوجة الصالحة هي التي تتصرف في الفراش باحتشام. أما إن أبدت رغبة أو شهوة فتعرض نفسها لخطر إصابة زوجها بالبلبلة ومن ثم فقدان رغبته بها. وإذا ما انحرفت يوماً عن الطريق المرسوم للزوجة المحتشمة، وأحبت رجلاً آخر غير زوجها، عندها يحل بها العقاب الوخيم. وهذا ما أشارت إليه الكاتبة كاترينا لومان بقولها: «في كل مكتبات العالم قلما توجد حتى الآن شخصية أدبية نسائية أقدمت على الخيانة الزوجية أو سلكت سلوكاً غير محتشم دون أن يلحق بها ضرر جسدي أو نفسي، أو كلاهما معاً. فإذا لم تتم تصفيتها من قبل زوجها في الحال تعمد هي نفسها، متسربلة بالشعور بالذنب والعار، إلى الانتحار بالسكين أو غرقاً، أو تبقى محكومة بالبؤس إلى الأبد».

يصف ليو تولستوي في روايته «آنّا كارنينا» كيف دمر عشقها للبارون فرونسكي حياتها الزوجية التي انتهت بانتحارها ملقية بنفسها أمام القطار.

وكذلك ايفي بريست التي وقعت في حب الماجور كرامباس. وعندما عثر زوجها -يما بعد- على رسائل حب، أقدم على قتل كرامباس وطرد زوجته التي مرضت ثم ماتت.

ويصف غوستاف فلوبيرت في روايته «مدام بوفاري» كيف استنزفت زوجة تعيسة بعد حب ومعاناة، ثم تجرعت السم وماتت بعد علاقة غير موفقة.

وكتب الأدب مليئة بالأمثلة الأخرى على معاقبة النساء اللواتي لا يستسلمن لزوج مستحيل عندما يحدن عن الطريق المرسوم للزوجة العاقلة المحتشمة وعديمة الرغبات. والنساء اللواتي يبدين رغبتهن يعتبرن منبوذات ومحتقرات. أما النساء الواقعيات فقد وصلتهن الرسالة، وإلا فماذا يبقى لهن في هذا القدر السيّئ سوى كبت رغباتهن أو التعبير عنها في السر؟

التظاهر بذروة الشهوة والعلاقات السرية:

لقد تغيرت الأزمنة وما من أحد بعد الآن ينكر على امرأة حقها في الحياة الجنسية التامة وفي تحقيق رغباتها في الحياة. فالمجلات مليئة بالنصائح المفيدة كيف يحصل الجنس الأنثوي على الاستمتاع بأفضل السبل، ومليئة كذلك بالصور التي تظهر للمراقب والمراقبة علناً بأن النساء كائنات لها شهواتها أيضاً. وهذا ليس سوى المظهر الخارجي. أمام الرأي العام وفي الإعلان أو منتجات الإعلامية يسمح للنساء بإظهار رغباتهن. لكن في الحياة الخاصة لم تتغير الحالة بعد إلى هذا الحد. ويبدو أن النساء لا يستطعن حتى الآن التخلي عن التلون والتصنع.

فقد امتد تاريخ امتد لعدة قرون من اضطهاد الحياة الجنسية للأنثى ورغباتها آثاره التي تطبع حياة النساء بطابعها. حتى الآن يواجه المرأة خطر وصفها بغير المحتشمة والشهوانية، أو حتى بالشبقة، عندما تبدي شهوتها علناً. حتى المرأة العصرية تكتم أحياناً بكبرياء رغبتها أو بالأحرى

عدم رغبتها. والكثير من النساء لا يجدن لديهن حتى الآن الجرأة للبوح للشريك عن رغباتها أو الحديث معه عن احتياجاتها الخاصة.

إنهن يفعلن وكأن العلاقة الجنسية المعروضة عليهن ستحقق لهن المتعة. إنهن يتصنعن الرغبة والارتواء، خاصة كي لا يجرحن شعور الشريك. وقد أجرى معهد Gewis في مدينة هامبورغ الألمانية استبياناً بتكليف من مجلة فرويندين (صديقة) Freundin حول الخداع والتضليل في حق السرير الزوجي تبين عبره أن ثلث النساء اللواتي شاركن في الاستبيان اعترفن بأن بلوغ ذروة النشوة الجنسية ذاتياً أسهل منه مع الشريك. ومراعاة لشعور الشريك يتظاهر 51% من النساء بالوصول إلى النشوة الجنسية. وبالرغم من أنهن غير راضيات على الإطلاق من تصوره للجنس، إلا أنهن يهمسن في أذن الرجل بعد ممارسة الجنس بكذبة لطيفة بقولهن: «كان ذلك في منتهى الروعة» أو «لم يسبق لرجل قبلك أن أشبع لي رغبتي كما أشبعتها أنت».

كما أظهر الاستبيان أيضاً أن سبب المشكلات التي تحصل في الفراش هو على ما يبدو قلة التواصل. أكثر من نصف من شملهم الاستبيان (55%) يعانين مشكلات التحدث مع الشريك حول الرغبات الجنسية. فالتظاهر بالرغبة بالجنس وبلوغ قمة النشوة الجنسية من الأمور التي لا تزال النساء حتى الآن تجعل منها سراً، على غرار بنات جنسهن في القرون الماضية. إنهن لا يتحدثن عن عدم إشباع رغباتهن، وقلما يتحدثن حتى عن هذه الرغبات. الكثيرات منهن يلذن بالصمت خوفاً من تفسير خاطئ للإفصاح عن الرغبات، وأخريات يعلمن علم اليقين بأنهن لا يمكن أن يتوقعن من الشريك أن يغير من سلوكه.

وقد اعتبرت الباحثة أدرينه ريتش في بداية التسعينيات من القرن العشرين بأنه من المتوقع من النساء أن يكذبن. أما ماهية الكذب فهي مرتبطة حسب رأيها بما يريد الرجل أن يسمعه في العصور المختلفة. ففي العصر الفيكتوري مثلاً كان مطلوباً من الزوجة أن تكون روحية (غير حسية) وأن يقتصر دورها على مجرد الاستلقاء. أما السيدة «الحرة» في القرن العشرين فمطلوب منها أن تتظاهر بالوصول إلى ذروة النشوة.

هل يعني هذا أنه لم تحدث تغييرات تذكر بالنسبة لوضع المرأة منذ عصر ايفي بريست وأشباهها؟ لا شك بأن مثل هذا الاستنتاج خاطئ، لأن بعض التغير قد طرأ، لكن قلما تم إدراك هذا التغيير لأنه حدث غالباً بالسر. فكثير من النساء سوف لن يقلن بأنهن راضيات عن حياتهن الجنسية الفطرية والمعترف بها. فمثلهن مثل ايفي بريست وأنّا كارنينا أو مدام بوفاري يتقن إلى تحقيق حياة جنسية كاملة، لكن يحرضن - بعكس هذه الشخصيات الأدبية- على أن لا ينتهي بحثهن عن هذه الحياة المنشودة إلى كارثة. وتحت حماية السر ينهلن ما تصل إليه أيديهن. فبدلاً من كبت رغبتهن، يحققنها الآن على نحو متزايد، لكن سراً.

لقد زادت الخيانة الزوجية عند النساء حسب ما يؤكده الخبراء الذين يعالجون قضايا الحياة الزوجية. لكن طبعاً ليس هناك أرقام حول هذه المسألة. والنساء يتصرفن بذكاء عندما يبقين على خيانتهن للزوج طي الكتمان؛ لأن الخيانة الزوجية كانت -وما تزال- السبب الأول للطلاق. وهذا ما ينطبق على الجنسين، لكن أكثر ما ينطبق على الرجال.

وفي استبيان قام به معهد أوفنباخ لاستطلاع الرأي عام 2003، ذكر 51% من الرجال المشاركين في الاستبيان بأن حياتهم الزوجية ستنتهي إذا ما أقدمت الزوجة على الخيانة. أما بالنسبة للنساء 27% سيكون ردهن صارماً إذا ما أقدم الرجل على الخيانة الزوجية.

إذاً فإن النساء يحسن صنعاً عندما يقدمن على إرواء احتياجاتهن غير المشبعة سراً، إذا ما أردن عدم تعريض علاقاتهن الدائمة مع الشريك للخطر، وهذا مالا يرغبن به في أكثر الأحيان. وغالباً مالا يتعلق الأمر بمجرد تبديل الشريك بشريك آخر. ففي الغالب هناك أسباب أخرى تكمن خلف «خيانة» الزوجات. فالحب السري يوفر للمرأة إمكانات تطور تفتقر إليها في حياتها «الأولى». وهذا ما تكشف عنه المقابلات التي أجرتها الباحثة النفسية «غيزيلا رونته» مع نساء يمارسن الخيانة الزوجية. فبعض تلك النساء استسلمن لهذه العلاقة الخارجية لأنهن لا يرغبن «بالتخلي عن إرواء حاجتهن الجنسية مدى الحياة» حسب ما تقوله المؤلفة. فقد ذكرت إحدى النساء في المقابلة بأنه «لم تعد لديها الرغبة بالتنازل والانتظار والتذمر وتوجيه اللوم إلى نفسها».

عندما تخون النساء فإن سبب ذلك غالباً هو أنهن يرغبن بإيجاد طريقهن خارج نطاق الشراكة وأداء الواجب. لماذا لا يبحثن عن هذا الطريق ضمن حياة الشراكة؟ تقول الباحثة غيزيلا رونته حول هذا الموضوع: «أعتقد أن المرء يشتط في متطلباته من علاقة ما، عندما يتم تحقيق كل رغباته ويريد أن يعيش كل جوانب حياته بنفسه. فقد تصل

علاقة ما إلى حدها وعلى المرء أن يقرر: أنا أقبل بهذا الحد وأقدّر ما في هذه العلاقة، وربما أبحث عن شيء أريد أيضاً أن أعيش خارج هذه العلاقة. أو أن أقرر التنازل ولا أعيش جوانب معينة». وفي الحالة الثانية يعني ذلك التوقف عن التطور.

وإذا ما أرادت المرأة التأقلم مستسلمة للمعطيات المتوافرة، فإنها تحتاج إلى السر لكي توفر للجوانب المهمة من شخصيتها، التي لم تعشها بعد، إمكانية الوصول إلى حقها.

وكما سبق وصفه في الفقرة المتعلقة بالحياة الثانية والحب السري فإن الأمر بالنسبة للعلاقات السرية يتعلق غالباً بمسألة الحفاظ على الاستقلالية أو استعادتها.

وطالما لاحظت المختصة في معالجة أمور الحياة الزوجية روزماري فلتر- اندرلين بأن العلاقة السرية «مؤشر على الحاجة غير المدركة- أول الأمر- لهذا الشريك أو ذاك، إلى إيجاد (خلق) غرفة خاصة أو مجال خاص به».

في هذه الغرفة الخاصة (المجال الخاص) يمكن، والحالة هذه، إيجاد موقف جديد من العلاقة القائمة، وربما إعادة التوازن للاختلال الذي تكون مع مرور السنين في علاقة الشراكة. وهذا ما ينطبق على الرجال والنساء على السواء. ولكن يمكن للحب السري أن يقوّي لدى المرأة - أكثر من الرجل- الثقة بالنفس وإعادة ميزان القوى، الذي خرج عن سكة التوازن في العلاقة المشتركة، إلى نصابه.

Obeikan.com

إنها مسألة سلطة:

بخلاف الرجال، فإن الخيانة الزوجية عند النساء لا تتعلق بالدرجة الأولى بالناحية الجنسية -أو ليس فقط بهذه الناحية- عندما تلجأ المرأة -سراً- إلى رجل آخر. فبعض النساء يحاولن عبر علاقة حب سرية إعادة توازن القوى المفقودة إلى علاقة الشراكة. كما قالت هانلوره (45 عاماً) في ردها على إعلاننا «البحث عن أسرار»:

مثال: أنا متزوجة منذ نحو 20 عاماً. كانت لدينا صعوبات إلى حد ما في السنوات الأولى من حياتنا الزوجية. زوجي ناجح جداً في حياته، شخصية مسيطرة ويفتقر إلى الحنان. كان لدي دائماً إحساس بأنني أعيش إلى جانبه في الظل وبدأت أذبل شيئاً فشيئاً. كنت أخاف منه دائماً، من اندفاعه الهوجائي وشدة غضبه وصرامته وقسوته. حتى ممارسة الجنس معه لم تكن تلك التي أرغبها، وأحياناً كنت أستلقي ليلاً في الفراش يائسة؛ لأنني كنت أعتبر أنه ما زال من الباكر لي أن أدفن رغباتي الجنسية. وكنت أفكر فيما إذا كنت سأنشر إعلاناً تحت عنوان «البحث عن عشيق». إلى هذا الحد بلغ حنيني إلى الدفء والاهتمام. لكني لم أفعل ذلك بالطبع. ولم أكن أرغب بترك زوجي. فبالرغم من كل ذلك كنت هناك أمور أخرى كثيرة مشتركة: مؤسستنا الصغيرة (وكالة إعلان)، كانت مزدهرة لأسباب كثيرة، منها أننا استطعنا التعاون معاً على نحو جيد. وكانت لنا بالإضافة إلى ذلك اهتمامات مشتركة: أدب، موسيقا، مسرح. فقط تلك العاطفة المفقودة وعدوانيته كان تتعبني.

أصبحت مشكلاتي أكبر، وصارت تتجلى أخيراً على شكل نوبات شقيقة. فكنت أذهب من طبيب إلى آخر، وكل منهم يكتب لي أقراصاً مهدئة. وذات يوم ذهبت إلى طبيب مختص. فكان حريصاً على تخليصي من تناول الأقراص التي جعلتني آخر الأمر مدمنة على تناولها وحولني إلى معالج نفسي، لكن ليس قبل أن يسألني إن كنت ألبي دعوته لتناول العشاء معه. ولكي لا أطيل عليكم: لقد أعجبت به جداً وأعجب بي أيضاً، وبدأت بيننا علاقة. كان متزوجاً أيضاً ويعيش منفصلاً عن زوجته لكن في المبنى نفسه. ولا داعي للقول إن آلام الشقيقة قد زالت عني بسرعة.

كان بودي في البداية أن أخبر زوجي بكل شيء، لكنَّ أسباباً عديدة منعتني من ذلك. خفت ردة فعله (كان يمكن أن يكون في منتهى العنف فيما لو عارضه أحد وأصابه «الأنا» عنده في الصميم). ولكن لم أكن أيضاً واثقة من أنني فعلاً كنت أريد الطلاق. هل كنت فعلاً أريد أن أقيم علاقة جديدة مع الطبيب؟ هل كنت أريد التخلي عن حياتي القائمة وعن مستقبلي المهني؟ لقد دعاني ترددي إلى الصمت وجعل من علاقتي مع الطبيب سراً. وأنا أعيش منذ ما يزيد عن سبع سنوات حياة مزدوجة. ويوم عن يوم يقل لدي الشعور بضرورة التخلي عن زوجي.

الآن تحقق التوازن. فقد تم الآن توازن علاقة القوة بيننا. فالذي أفتقده عند زوجي أحصل عليه من عشيقي. وما لا يستطيع عشيقي أن يوفره لي، وهو الاستقرار والحياة العائلية، أحصل عليه من حياتي الزوجية. ولذلك أريد أن أعيش مع هذين الرجلين. فبوجودهما معاً في حياتي يتولد لدي الشعور بأن حياتي «مكتملة».

فمع كل منهما أعيش جانباً من جوانب حياتي. وبالرغم من أن هذه الحياة في منتهى الصعوبة إلا أنني لا أستطيع أن أضع حداً لها. أتساءل أحياناً فيما إذا كنت لا أزال طبيعية، وأحياناً أرغب بإمكانية الاكتفاء برجل واحد. لكن مجرد التفكير بالتخلي عن أحدهما يخيفني.

يبدو من هذا المثال أن الحياة السرية تساعد أحياناً في التخلص من المخاوف والشعور بالضعف وإعادة تناسب القوة في علاقة ما إلى صوابها.

لقد أعانت الحياة المزدوجة هذه السيدة على استمرار عملها وحياتها مع زوجها دون أن تعاني الجوع العاطفي. ولو تخلت عن عشيقها فإنها تخشى ليس فقط من العودة إلى الشتات العاطفي، بل ستعود أقل قوة في الصمود أمام أمزجة ونزوات زوجها المفاجئة. فتوازن القوى التي أوجدته عبر علاقتها الخارجية سيكون في هذه الحالة في خطر. أما الحل الذي عمدت إليه «هانلوره» قد لا يكون حلاً طويل الأمد، فهذا في يد المجتمع الذي لا يسمح إلا بعلاقة زوجية أحادية Monogam. لكن على أي حال فقد خلفت بهذا الأسلوب حماية من القوى الهدامة في حياتها الزوجية، وغيرت ظروف الحياة الزوجية لصالحها. ربما استطاعت يوماً ما - بحماية حياتها المزدوجة- أن تتخذ قراراً مفيداً من أجل حياتها اللاحقة، وربما لن نستطيع ذلك.

عندما تشعر المرأة بالغبن في علاقة طويلة المدى، وعندما يكون الشريك مسيطراً، وعليها أن تتكيف مع هذا الواقع، يمكن أن تكون الحياة السرية منقذاً على المدى القصير أو الطويل، إذا ما كان الانفصال بينهما غير ممكن، أو غير مرغوب.

لكن إعادة توازن القوى لا يكون فقط عبر علاقة حب سرية، بل أيضاً بأسلوب آخر، كما يعرض لنا المثال الآتي: الذي تقدمه لنا إيفان امبر بلاك، المختصة في معالجة الشؤون العائلية:

مثال: حاولت سيلما اليكساندر طوال سنوات عديدة أن تضغط على زوجها هنري ليفصح لها عن ثروة الأسرة. وفي كل مرة كان يحدث بينهما خصام لأنها كانت تطلب منه الكشف عن الأموال، وطالما أن جميع احتياجات حياتها مدفوعة التكاليف فليس من الضروري أن تعرف التفاصيل. أخيراً أخبرته سيلما بأنها ستسافر لعدة أسابيع وأنها ستتصل به بانتظام أثناء غيابها، لكنها لن تفصح له عن مكان وجودها. وعندما رجعت كان له موعد مع مستشاره لشؤون الضرائب، لكي يقدم لها شرحاً مفصلاً عن كل ما يخص الوضع المالي.

لقد عمدت الزوجة إلى اللجوء لسر وأوضحت لزوجها بأنها لم تعد مستعدة، للتخلي له عن موقع القوة في هذه العلاقة. لم تعد تريد أن تتسول المساواة في الموقع والمعاملة وتضع نفسها تحت رحمته. فعبر رحلتها -المحاطة بالغموض- أظهرت له بأنها هي أيضاً لا يمكن أن تبقى في موضع الضعيف.

إلا تأنيب الضمير:

استطاعت النساء على مر العصور -مستعينات بالأسرار- أن يخلقن لأنفسهن «مجالات لحرية الحركة». وقد تم ذلك في أغلب الأحيان بالمكر والخداع والتظاهر والتضليل. من الممكن أن نستخلص بأن النساء، لأنهن اعتدن على إخفاء رغباتهن الحقيقية، قادرات على تدبر أمر الحياة مع

الكذبة على نحوٍ أفضل من الرجال. هل هن بارعات في الخداع والتلون كما زعم السادة شوبنهاور ونيتشه وفايننغر وموبيوس؟ إن الدراسات المتوافرة حول هذا السؤال لا تسمح بمثل هذا الاستنتاج، بل على العكس تماماً: ربما تحتاج النساء إلى الكذب أكثر من الرجال، لكنهن يتعاملن معه بضمير حي أكثر مما يفعله الرجال.

فالأسرار والكذبات تثقل على كاهل النساء أكثر من الرجال. ويبدو أنه من الأصعب على النساء تحمل النتائج المتعلقة بالعاطفة والأحاسيس، فالإحساس بالذنب والخجل يدفع بجنس النساء إلى مزيد من الانجاز يفوق جنس الرجال.

تذهب النساء إلى المحكمة باستقامة تفوق استقامة الرجال عندما يتجاوزون النظم والقوانين المرعية ويرتكبن خطيئة. فالمرأة تبادر إلى القول: «أنا أكذب لدي سر، إذن أنا سيئة الأخلاق». بينما يميل الرجال إلى تبرير كذبهم وتحميله لشخص آخر بقولهم: «أنا أكذب لأنك أجبرتني على ذلك». أو «أنا أكذب، لكني أفعل ذلك لأنك لا تطيقين الحقيقة». والرجال يتعاملون مع إنكار الحقيقة على نحو أكثر راحة. فلا يعدون أنفسهم فوراً ذوي أخلاق سيئة إذا ما أخفوا سراً باتباع أسلوب الكذب.

هنا يظهر صراع: النساء بحاجة إلى أسرار ليتمكن من التقدم خطوات مهمة نحو الأمن والاستقرار، لوقاية أنفسهن من الإساءات وللحصول على مطالبهن المحقة بالسلطة. وفي الوقت نفسه يبدو أن لدى النساء من الضمير الحي ما يفوقه لدى الرجال عندما يحدن عن

الحقيقة. يعذبن أنفسهن بتوجيه اللوم إليها يعددن أن من غير الأخلاقي أن يكذبن أو يخدعن.

لا يسمحن لأنفسهن بالخداع بضمير مرتاح إلا عندما يحمين بذلك أناساً آخرين من الفضيحة. فعقلية الجنس اللطيف تعد أن الكذب مسموح به إذا كان يخدم مصلحة الغير، بينما تنبذ الكذب إن كان يخدم مصلحة الذات.

النساء هن اللواتي يجعلن حياتهن صعبة وبلا مبرر. فالضمير الحي والارتياب الأخلاقي يكونان في غير موضعهما عندما يتعلق الأمر بتأمين مجال أرحب لحياتهن الخاصة. فالأسرار يمكن أن تجعل حياة المرأة أسهل وأكثر تلويناً وجديرة بأن تعاش. فالأسرار تؤمن لها إمكانات التطور وتأمين الحريات التي لا مكان لها في مجريات الحياة اليومية.

فإذا ما تخلت النساء، نتيجة تضخم الضمير الحي والأخلاقية التي يساء فهمها، عن هذه الفرصة، عندها يحرمن أنفسهن من حياة أفضل. وهذا ما يفعلنه أيضاً عندما يتحملن أسراراً دون الاستمتاع بها واستغلالها، لأنهن يشقين بتأنيب الضمير والشعور بالذنب.

«الآن فقط بدأنا، نحن النساء، باكتشاف حقائقنا الذاتية» كما تقول ادرينه ريتش. ربما كان على النساء أن لا يجهرن فوراً بهذه الحقائق أمام العالم، طالما لم تصبح ثابتة بالفعل، فلأسباب إستراتيجية، ومن أجل الحماية الذاتية، كان عليهن الاحتفاظ بهذه الحقائق لأنفسهن؛ لأن ذلك يعطيهن القوة والمجال الحر الضروري من أجل المزيد من التطور.

Obeikan.com

لماذا تحتاج النساء إلى أسرار:

يمكن أن يكون السر بالنسبة للمرأة مفتاحاً مهماً تحصل بواسطته على شروط حياة تحقق فيها وجودها الذي تقرره بنفسها. فالنساء بحاجة ماسة إلى حماية حياتهن الخاصة لأنها غالباً ما تكون مهددة بالزوال نتيجة متطلبات الأسرة والمهنة والجو العام. النساء بحاجة ماسة إلى توازن قوى؛ لأنهن مازلن مهددات بإخضاع مصالحهن الذاتية لمصلحة الآخرين. النساء بحاجة ماسة إلى حماية توفرها لهن الأسرار من أجل اختبار أهدافهن وأفكارهن، مهما كانت مبهمة وغامضة وغير ناضجة.

يمكن لحياة ثانية -إلى جانب الحياة العادية- أن تكون حلاً مناسباً بالنسبة للنساء خاصة عندما يكن مهددات بالاختناق تحت وطأة متطلبات الحياة اليومية.

حياة ثانية لا يملك أحد شيفرة الولوج إلى داخلها (لا الشريك ولا الشريكة ولا الأبناء أو أي فرد من أفراد الأسرة، لا الأصدقاء ولا الزميلات) تؤمن الهواء للتنفس وتعيد للمرأة إدراكها لقيمتها. بذلك يمكن وضع حد للشعور بالضعف والهوان واليأس، ليزداد بذلك الاستقرار النفسي.

obeikan.com